سوبريم

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتـــاب: سوبريم
المـــؤلـــف: د. رامي قطب
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 128 صفحة
عدد المـــلازم: 8 ملازم
مقاس الكتاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 31388 / 2024
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 9679 - 06 - 8

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

سوبريم

رواية

بقلم

د. رامي قطب

فَرح

في الساعة العاشرة مساءً، كانت الشوارع العامة في طنطا هادئة تمامًا، لا تسمع إلا صوت الريح وحركة أوراق الشجر معها، وصوت أمعائك لو كنت مثلي مصابًا بالقولون العصبي!.. وذلك رغم أن هذا الوقت يمتلئ بالحركة عادةً لكننا إن نظرنا جيدًا رأينا تجمُّع المارة رجالًا ونساءً أمام المقاهي التي كانت تذيع فيديو السيدة (فرح)، هيا أفسحوا الطريق يا حمقى أريد أن أرى معكم، على شاشة معلقة كان الفيديو عبارة عن لقطاتٍ قصيرة لا تتجاوز الدقيقة تظهر تلك السيدة مرتديةً عباءة سوداء وتحمل حقيبة بنية اللون قاتمة على كتفها، رأسها مغطى بخمارٍ قصير وقدماها تظهران من النعلين المكشوفين، وهي تقف على حافة حي أول، تلك الحافة غير المنتظمة، تتقدم خطوة ثم تتراجع، تبكي بحرقة، وتخرج هاتفها وتصور نفسها، تتكلم بكلمات لا نسمعها، ثم يسقط منها الهاتف مع ارتعاشة يدها، وفي النهاية تقطع ترددها بإلقاء نفسها فترتفع إلى أعلى على الفور لتسقط في حي ثانٍ جثةً هامدة، ولكن لا توجد كاميرات في المكان المقابل بحي ثان لنرى سقوط الجثة!.

***

تناول الإعلام القضية باهتمامٍ بالغ، فهي الأولى من نوعها منذ استقر حي أول في السماء مقلوبًا فوق حي ثانٍ بعد اصطدام النيزك الفضائي بمدينة (طنطا)، لم يتوقع أحد أن تكون هناك حوادث انتحار، فالارتفاع مخيف والمنظر من أعلى له رهبةٌ كبيرة، ولكن من قال إن من ينتحر يفكر في هذا؟ إنما يفكر بعد ما يلقي بنفسه حيث لا ينفعه تغيير رأيه، ولا شك أن السيدة (فرح) قد ماتت قبل أن تصل إلى الجهة الأخرى من الرعب والصدمة.

فما الذي دفعها لفعل هذا؟

***

منذ عدة سنوات كانت طنطا مدينةً طبيعية كالماء لا طعم لها، في وسط الدلتا بعيدة عن الأنظار، ليست العاصمة وليست الإسكندرية، لكنها في منتصف المسافة بينهما، مدينة هادئة مستقرة، محاطة بالقرى والأراضي الزراعية، وإن كان الأخضر في تناقصٍ والأسمنت في زيادة، إلا أنه لا يزال فيها خيرٌ كثير.. حتى سمع الناس الخبر من الوكالات الإعلامية.. هناك جسمٌ غريب أشبه بنيزك قادم إلى كوكب الأرض، ليست المرة الأولى التي نسمع فيها عن ذلك، وكل مرة تخطئ الحسابات وينحرف النيزك في اتجاهٍ آخر.. نيزك منحرف.. أو يكون حجمه صغيرًا غير مؤثر، يسقط في

صحراءٍ ما أو مزرعة ما، وإن بيع بيع بأضعاف سعر الذهب.. فما الجديد إذن؟ يقول الباحثون إن هذا الجسم لا يشبه ما رأوه من قبل، كأنه نيزك اصطناعي يعرف تمامًا إلى أين يتجه، وهو يتجه إلى الأرض إلى مصر، إلى طنطا، لقد ترك واشنطن ونيويورك ومدريد وليفربول، وباريس سانجيرمان واختار طنطا.. محظوظة من يومك يا طنطا!.

السرعة والحجم الكبير جعلا العلماء يؤكدون أنه سيدمر الكوكب، بغض النظر هل سيسقط في طنطا أو لوس أنجلوس أو بلطيم!..

الوقت لم يكن كافيًا لمناورات نووية ومحاولة تفتيت النيزك بتقنيات أفلام هوليود، لكن النيزك إذِ اقترب من الأرض انفصل منه جزءٌ ثم آخر، وبدأ حجمه يتقلص كأنه صاروخ منطلق إلى الفضاء تنفصل أجزاؤه واحدًا تلو الآخر، إلى أن دخل الغلاف الجوي للأرض فصار حجمه كالصخرة الصغيرة، حادة الأطراف كالسكاكين.

حينما رأى الناس أن الحجم يتقلص سُرُّوا وعاودهم الأمل، إذ نيزك صغير لن يضر على الأغلب إلا لو سقط على رأس شخصٍ اختار أن يمشي في الشارع ويعرض نفسه لمثل هذا الخطر غير المفهوم، فهذا إِذَنْ حظه أسود من قرن الخروب لو كان للخروب قرن!.

رغم الأمل العائد إلا أن أهل طنطا ظلوا على تشاؤمهم - على العهد يا أهل طنطا - احتموا بالبيوت إلا قليلًا، وأحكموا إغلاق

النوافذ بسذاجة احتياطية، مع ما قد ملؤوا الزجاجات البلاستيكية الفارغة والدلاء وأحواض الاستحمام بالمياه ومخزون الشموع التي اشتروها، وأشياء أخرى يفعلونها عادة كلما يحذر الإعلام من أزمةٍ ما، خاصة وهم غير مدركين لأبعاد الأزمة الحالية، هل سيتحول الناس لعصابات يتقاتلون على الطعام والماء؟ أم هل سيموت الناس أنفسهم؟ لا أحد يفهم.. ومرت الدقائق المتبقية في صمت خارجي في الشوارع ولهج داخلي بالدعاء، تحتضن كل أسرة أفرادها في وداع خاص.

***

هل صادف النيزك ذلك الشق في وسط شارع البحر أم أنه تعمد الوصول إليه؟ وأسئلة أخرى سيظل الناس يتساءلون عنها لأعوام تالية، فقد توجه الجسم الفضائي مباشرةً إلى الشق المهمل منذ ثلاثة شهور، وغاص فيه بين حي أول وحي ثان.. لعدة ثوان ظن المراقبون بالأقمار الصناعية أن الأمر انتهى وأن الرعب لم يكن له سبب، إلى أن حدثت هزة عنيفة طار بعدها حي أول كاملًا وقد اقتلعته صخرة النيزك بسكينها الغريب فصار حي أول كأنه قطعة بيتزا، أو دعنا نقول كأنه قطعة من عجين بيضاوي لم يُبسط بعد لعمل بيتزا، حتى لا يظن الناس أني أقول إن الأرض مسطحة، فأنا مجرد راوٍ عليم لا شأن لي بذاك الجدل، المهم أن المثال فيه بيتزا لأني جائع الآن!.

لقد طار حي أول وهو ينقلب حتى كاد أن يخرج من غلاف الأرض الجوي بسكانه المساكين، لكن سرعته تباطأت بسيطرة جاذبية الأرض فصار كجزيرةٍ مقلوبة طائرة فوق حي ثان، لماذا لم يسقط؟ لا أحد يعرف، هناك نظريات كثيرة وتحليلات ظهرت على مر السنوات التالية لكنه على كل حال كان حدثًا لم يعرف العلماء له سابقة.

***

كان وضع سكان حي أول مأساويًّا، فقد انقطعت عنهم كل وسائل الاتصال وإمـدادات الطاقة والمياه والمواصلات، نالت الأمهات الكثير من التقدير عن قرار تخزين الماء والشموع، وشعرن بالفخر وأن الله قد نصرهن أخيرًا بعد ما عانين منه من استهزاء، لكن الأزمة لم تدم طويلًا، فقد كان الحدث عالميًا والأنظار كلها مصوبة على طنطا، وانهالت المساعدات والأبحاث من كل مكان لإعادة الحياة إلى حي أول مرة أخرى، وكان من ذلك أن إحدى شركة المياه الغازية تكفلت بعمل أنابيب للتوصيل بين الحيين بتقنية أشبه بالمستخدمة في الحقن، فإذا ركبت من طرف الأنبوب كأنهم يحقنونك للطرف الآخر، مع عزل الأنابيب عن الأجواء المحيطة، فالارتفاع كان شاهقًا إلا أن بعده كان محتملًا.

وبذلك أعادت المواصلات الحركة بين الحيين، وبدأ الناس يدركون الأوضاع الجديدة، وانجذب الزوار من كل مكان لمشاهدة هذه المعجزة.

***

بعد مدة من ارتفاع حي أول لأعلى بمعجزة فلكية وفيزيائية، بدأ الناس ينظرون إليه بإعجابٍ وتمييز.. وسرعان ما صار محط نظر ومطمع الأثرياء، زُيّن في أعينهم كبيئةٍ مغلقة فريدة، كومبوند سماوي، كعكة مزينة بكرزة شهية تنتظر من يستحقها.

***

أحد أثرياء طنطا المشاهير ممن يتاجر في الحديد الصلب وهو (هاشم أبو العزم) البرلماني السابق، له صلات قوية بشخصيات هامة في الدولة، بدأ الفكرة بعد سهرة عامرة مع بعض أصدقائه من رجال الأعمال الطنطاويين، استدعى مهندسًا معماريًّا يساعده على تخيل حي أول بعد ما يستولي عليه، هنا ستكون ملاعب الجولف، وهنا نادٍ رياضي وهنا مدرسة، وهنا وهنا.. سال لعاب (هاشم أبو العزم) فاشترى على الفور، عدة مبانٍ وأراض من أصحابها بعشرات الملايين من الجنيهات، ووجد أن ماله وحده لن يكفي لشراء الحي كله، ولم يكن له أن يكتفي بما اشتراه، ففكرته تتمحور

حول عزل حي أول تمامًا وجعله فريدًا في شكله وتكوينه المعماري وكذلك سكانه بالطبع.. لذلك بدأ في إقناع أصحابه، راقت الفكرة للكثير منهم، بعضهم من طنطا والبعض من القاهرة والإسكندرية ودمنهور وغيرها، وأمر التنقل إلى أعمالهم تم تيسيره بعمل أنابيب للشخصيات الهامة تنقلهم من حي أول إلى سياراتهم الفاخرة في حي ثان، مع عمل مطارٍ خاص متوسط المساحة على أراضي بعض القرى المجاورة لطنطا.. وهو ما جعل تنقل رجال الأعمال القاهريين أسهل في حالة احتياجهم للسفر سريعًا إلى القاهرة بالهليكوبتر الخاصة.. بالطبع كانت الفكرة في البداية أن يكون المطار على أرض حي أول لكنها قوبلت بالرفض لإرادتهم استغلال المساحة أفضل استغلال ممكن، ووجود مطار كان سيقضي على كثير من مساحة الحي، كما أني لا أدري صراحة كيف كانوا سيطيرون بسلاسة بين الجاذبيتين، سيحتاجون إلى طائرات تصلح للمناورات، لكني لا أعلم هل فكروا في هذا أصلاً أم لا؟ لم يخبرني المؤلف ولا أظنه يعلم أصلًا.. ما علينا!.. حتى إنهم اشتروا عمارات ومساكن وكل أراضي القرى التي ارتفعت مع حي أول حين قسمه النيزك وهجّروا أهلها تمامًا بعروضٍ مالية مغرية فقط ليضمنوا أن يكون الحي كاملًا لطبقةٍ معينة من الأثرياء..

شيئًا فشيئًا استطاعوا السيطرة بالكامل على حي أول، وهدمه

وإعادة بنائه مرة أخرى على طرازٍ مختلف تمامًا راقٍ وأنيق، قصور ومساحات خضراء.. مسابح وملاعب، والأهم عزلة مثالية عن العالم.. حتى إنهم قد هدموا ميدان الساعة الذي كان يزدان بساعة مطورة بالذكاء الاصطناعي من قِبَل علماء متخصصين، لكنهم لم يهتموا، فقد كانت لتشوه التصميمات الراقية..

قرروا اسم حي أول الجديد بسهولة، فقد سموه (سوبريم Supreme) فهو اسم يعبر عن التميز والتفوق والطابع النخبوي للكومبوند الجديد، كما أنه اسم يجعلهم يفخرون بأنهم أصحابه.

المثير للدهشة في الموضوع، أن هذا المجتمع الراقي بُني بالكامل بأيدي عمال من حي ثان.. كانوا متحمسين للغاية لما سيتقاضونه من أموال في تلك الظروف العصيبة التي تمر بها البلد، بينما رفض عمال آخرون أن يشاركوا في البناء.. شعروا بريبة في الأمر وقد واجهوا أصحابهم بذلك.. قالوا لهم:

«أنتم تنبشون قبوركم بأيديكم».

بينما كتب (أحمد إسماعيل) كاتب الخيال العلمي الشهير في مقال له في جريدة إلكترونية:

«ما أشبه الليلة بالبارحة، إن ما فعله عمال حي ثان يشبه ما فعله عمال (بيرو) الفقراء الذين بنوا بأيديهم جدارًا للأغنياء يفصلهم عن

الفقراء الذين ينتمي إليهم هؤلاء العمال.. سمي لاحقًا بـ (جدار العار)، فهم كالذي يقطع غصن شجرة وهو واقفٌ عليه، فإن أتم عمله كان أول الساقطين، وسيأتي اليوم الذي يعود فيه الحق لأصحابه.. نعم.. سيعود حي أول إلى أهله كما ستعود فلسطين».

كان الكاتب (أحمد إسماعيل) نفسه يسكن شقة في شارع النحاس في حي أول قبل أن يهجّر عنوةً مع من هُجّر من أجل بناء ذلك الكومبوند الفضائي، فسخط عليهم وقرر الانتقال إلى القاهرة التي طالما كان يرفض الانتقال إليها لحبه طنطا وألفته بها، ولكن بعد التهجير شعر بأن طنطا طردته، واستقبلته القاهرة بكل الحب ورحب به الوسط الأدبي المتوطن في العاصمة.. وقد عاد هذا على أعماله بالنفع فقد سهل عليه الاتصال بالمنتجين والمخرجين تمهيدًا لعرض كتاباته على الشاشات بعد أن كانت حبيسة المكتبات أكثر من عشرين سنة، لا يعلم عنها إلا متابعوه من القراء المحبين..

هل يقل شعور المرء بالوطن كلما فقد حبيبًا؟

ذكّرني سفر (أحمد إسماعيل) وبعده عن مسقط رأسه بصديق لي أيام الاغتراب قبل أن أستقر في مصر وأصير راويًا عليمًا متفرغًا، كان أستاذًا جامعيًا في ذلك البلد الشقيق.. راتب ممتاز.. أسرته معه.. أبناؤه في مدارس البلد.. ولم ينزل مصر منذ سنوات، سألته أنا الذي كان يؤرقني الشوق إلى أهلي ووطني:

- ألا تريد أن تعود؟ أما آن الأوان؟.

فقال لي بصراحة:

- ليس لي مَن أعود إليه هناك، فقد توفي والداي وليس لي إخوة!.

قالها وهو يكاد يضحك بينما رأيت في عينه دمعة تكاد تفضحه استدار بسرعة ليخفيها.. هاها أمزح معك أيها القارئ، لم تكن هناك دمعة، بل كان سعيداً وأحواله مستقرة، اعذرني ولكن يا لك من مغفل تصدق أي شيء!.

لعلك تتساءل الآن وما علاقة (فرح) بكل هذا؟

***

الحقيقة أن سيطرة الأثرياء على حي أول لم تكن تعني أنه سيكون خالياً من الطبقات الأخرى تمامًا، فهذا مستحيل، بل تواجدوا بغزارة، ولكن كعمالة ومعلمين وأطباء وخدّام ورجال أمن وعمال نظافة، وغير ذلك من الوظائف التي لا بد منها والتي لا يستطيع هؤلاء أن يقوموا بها..

يَلِجُون صباحًا وفي مواعيد العمل المختلفة في طوابير طويلة عبر الأنابيب التي كانت قد صنعت في الماضي أول ما استقر حي

أول فوق حي ثان – أنابيب العامة – ، وكذلك يرجعون من نفس الطريق في آخر نوبات عملهم ولا يُسمح لهم بالدخول أو الخروج إلا بتصريح يوضح صفتهم وسبب الدخول ومختوم بختم الحي وختم صاحب العمل الذي يكفله.

رغم أن الهوة كانت هائلةً بالفعل، إلا أنها كانت تزداد اتساعاً بين الجانبين، وقد صار لسكان حي أول صلاحياتٌ أكبر في التعليم والصحة والخدمات بينما الآخرون يعانون من نقص كل شيء في حي ثان.

***

و(فرح) كانت خادمة في فيلا السيد (جميل).

***

من حين لآخر كانت تحدث حوادث سرقة من بعض العاملين في المنازل، لفقرهم الشديد ووجود الملذات أمام أعينهم ليل نهار، لكن هذا لم يكن شائعاً، لذا كان الأمر يمر مرور الكرام، ربما بعض التعنيف والطرد، أحيانا السجن إذا تم تصويره بالكاميرات وكان الدليل واضحاً، كما لو كان هؤلاء يحتاجون إلى دليل لإلصاق التهمة بمن أرادوا!.

***

وفي مرة من المرات عاد رجل الأعمال (جميل) إلى بيته وقت الظهيرة، بعد أن خسر صفقةً هامة بملايين الجنيهات، فرجع محبطاً إلى البيت.. كانت (فرح) الخادمة الكهلة تنظف البيت وقد قرب موعد رحيلها، لكنه لاحظ اختفاء تمثالٍ ذهبي صغير كان قد اشتراه من إحدى رحلاته في تايلاند، من على مكتبه، فأمرها أن تمثل أمامه ليفتشها، كان محبطًا وغاضبًا بسبب الصفقة وكأنه محتاجٌ إلى أن يفرغ غضبه على شخصٍ أو شيء ما.. تحول غضبه إلى شيطان يحركه لاستغلال أي هفوة تصدر، فما بالك بتمثالٍ ثمين، صحيح أنه لا ينقص من ماله الكثير لكن هذا لا يعني التسامح مع السرقة التي يشك فيها.. فالسرقة خيانة للأمانة وفرعٌ عن الكذب، ومن يكذب عليك ويخونك ويسرقك فماذا بقي له ليفعل معك؟ وما الفضيلة الباقية عنده؟..

امتثلت أمامه كما طلب وهي تتصبب عرقاً، ولكن لم يبد عليها شيء مريب بل ضحكت مستغربة أن يشك بها وهي تعمل عندهم منذ زمن، واستنجدت بزوجته.

قال ببرود:

- وأين ذهب التمثال الذهبي إذن؟

- لا أدري يا سيدي لعل أحداً نقله من مكانه.

قال وهو يحدق إليها باستهزاء:

- وهل تصدقين نفسك وأنت تقولين هذا؟

- هذا ما حدث صدقني.

لكنه لم يثق بها وجعل زوجته تفتشها، لامته زوجته التي كانت تحبها وتثق في عفة نفسها وأمانتها، فهي تعمل لديها منذ عدة سنوات، لكنها استجابت له، بدأت بفحص محتويات حقيبتها فلم تجد شيئاً، فسُرَّتْ بذلك ونظرت إلى زوجها منتصرة، ولكن شيئاً ما جعل (جميل) يصر على أنها سارقة، لقد تحول الأمر إلى تحدٍّ بالنسبة إليه، كأن إثبات سرقتها سيعوضه عن كل الإحباط، أما إن ثبت أنها بريئة فسيضيف ذلك فشلًا إلى فشله ويهبط به إلى الحضيض، فطلب من زوجته تفتيش ملابسها..

غضبت زوجته من وقاحته وأبت أن تفعل ذلك، فوضع رجلاً على رجل وأشعل سيجارة جديدة وقال بكل وضوح:

- إن لم تفتشي ملابسها سأفتشها بنفسي، أنت تعرفينني وتعرفين أني سأفعل ذلك!.

احمر وجهها غضباً ونظرت في خجل إلى فرح التي كانت ذاهلة، ثم بدأت تفتيشها دون أن تنطق كلمة واحدة.. ولشدة دهشتها استخرجت التمثال الذهبي بسهولة.

نتيجة ذلك على (جميل) كانت السخرية والشعور بالنصر، أما زوجته فشعرت بالغضب الشديد لما شعرت به من خذلان.. كانت تكره الخادمات السارقات وقد تعاملت مع الكثير منهن قبل أن تعرف (فرح) التي ظلت تتعامل معها بحذر مدة حتى أمنتها، وصارت تثق فيها ثقة عظيمة، وكلما ارتفعت إلى الأعلى كان السقوط أشد إيلامًا..

رفع جميل هاتفه فصور زوجته بالكاميرا وهي تسب فرح على ما فعلت وقد انهالت عليها ضرباً، فأسقطتها على الأرض و(فرح) مستسلمة تبكي بشدة وتحمي وجهها، لكن السيدة أخذت تركلها في بطنها وظهرها وهي ملقاة على جانبها على الأرض، بينما جميل يضحك وقد نفس عن غضبه وإحباطه أخيراً.. ثم قبل أن تطردها شر طردة، أخرج (جميل) بعض الأموال وألقاها إليها قائلًا:

- هذا حساب الأيام التي عملتِها هذا الشهر وزيادة، فنحن لسنا لصوصًا.

ثم قام برفع الفيديو الذي سجله على إحدى شبكات التواصل الاجتماعي مع تعليق ساخر ووسم:

#لصوص_المنازل.

***

شارك الفيديو على شبكات التواصل أصدقاء (جميل) من سكان حي أول لتحذير أصدقائهم، ثم وصل إلى آخرين من سكان حي أول الذين بدؤوا يتناقلون الفيديو تزامنًا مع انتشار خبر الانتحار، فانتشر هذا الفيديو بعد ساعات كالفيروس، كأنه مقطعٌ محذوف من فيلم ممنوع من العرض، ولعل السر في هذا أن الناس رأوا في الفيديو شيئًا رهيبًا فأرادوا أن ينقلوا هذا الشعور إلى أصدقائهم ليشاركوهم الألم أو النشوة حسب انتمائهم لأي من الفريقين، إلى الحد الذي أذهل (جميل) نفسه حينما اتصل به بعض جيرانه محذرين من عواقب انتشار هذا الفيديو، فقام بحذفه فورًا من حسابه بتلك الشبكة الاجتماعية، فوجده قد تم رفعه على شبكة أخرى من شخص آخر، فتوصّل إلى ذلك الشخص ودفع له مبلغًا جيدًا ليحذفه من حسابه، وبمجرد حذفه ظهر مجددًا من خمسة حسابات مختلفة أخرى، فكلما حاول إخفاءه انتشر أكثر وفقًا لتأثير (سترايسند) الشهير، حيث تم تصوير بيت ممثلة أمريكية بدون إذنها فقامت برفع دعوى قضائية لحذف الصورة من الموقع الإلكتروني، فأدى ذلك إلى زيادة عدد مرات تحميل الصورة من 6 تحميلات فقط إلى 420000 تحميل خلال شهر واحد، وفي النهاية خسرت الدعوى ودفعت رسومًا قانونية بقيمة 155567 دولارًا.. بعدها صار مصطلح (تأثير سترايسند) يعبر عن كل محاولة إخفاء معلومة أو إزالتها أو الرقابة

عليها تفشل وتأتي بتأثير عكسي، مثل منع كتاب، فيبحث الناس عنه ليعرفوا سبب منعه أو إثارة الجدل حوله، أو حظر فيلم في بلد ما فيتسارع الناس لرؤيته بطريق غير قانونية، مثلما حدث في رواية (حياة الكاتب السرية) التي تحكي عن كاتب اختار العزلة فازداد الناس به شغفًا وهذا ما حدث مع فيديو (فرح).

***

انصرفت (فرح) وقد انكسر جسدها من الوجع وروحها من الفضيحة، ورغم الآلام التي يضج بها جسدها من آثار الضرب، إلا أن رعب الفضيحة كان أشد أثرًا، أخذت تفكر في العواقب.. فقد رأت (جميل) يصور الفيديو وهو يضحك.. وفي لحظات سيكون الفيديو على الإنترنت، سيراها الجميع وهي تُهان، ولن يكتفي الناس بتعييرها وبناتها بما فعلت لكنها أيضاً يستحيل أن تجد فرصة للعمل مرة أخرى..

***

بعد أن ألقى بها حراس الأمن خارج البوابات طريدة لم تكن تدري ما تفعل، كيف ستعود إلى بناتها؟ كيف سينظر لها جيرانها بعد ذلك؟

هل سيدرك جيرانها الذين عرفوها سنين طويلة أنها لم تسرق

إلا لتنفق على زواج ابنتها الكبرى التي تمت خطبتها بالفعل؟. هل سيقنعون حينها بأنها عفيفة أم سيبدؤون في تفسير كل تصرف فعلته يوماً على أنه كان ينبئ عن سوء طويتها؟. إنها تعرفهم، وتعرف أنهم سيفسرون حتى نظراتها اللحظية التي لم يكن لها معنى في وقتها على أنها خبثٌ منها..

ماذا لو قالت إن الموضوع ملفق وإنها لم تسرق شيئًا؟ قالت لنفسها «كم أنت غبية! وهل سيصدقك الناس والفيديو في أيديهم؟ هل سيصدقونك وأنت وحدك؟.. لماذا تركتني يا (سيد)؟! من بعدك صار الحمل ثقيلاً إلى حدٍ لا يوصف ولا يفهم!».

***

(سيد) ابن عمها الذي تزوجته وهي ابنة سبعة عشر عاماً، حينما كانت جميلة الملامح تسرق الأبصار بابتسامتها، قبل أن يرسم الدهر نقوشه على جبينها غائرة من الهم فطغت نقوش الجبين على غمازات الخدين فلم يصبح لها معنى، ذات وجهٍ طويل تستغربه أول ما تراه ثم تعتاده بعد ذلك، حتى تظن أن الوجه كلما طال زادت طيبة صاحبه، وذقن شبه مدببة، عيناها بنيتان داكنتان ووجهها باسمٌ خارج البيت، أغلب الأوقات، رشيقة القوام كانت، وسيد كان بنَّاءً اسمرّ جلده من الشمس، يحمل الطوب الأحمر على كتفيه وهو يغني

مع رفاقه، بلا كلل، في سبيل أبنائه وزوجته (فرح) التي يعشقها، إلى أن جاء اليوم الذي سقط فيه من على سقالة، فمات من فوره، لم يدخل مستشفى ولم يعانِ ولو قليلًا.. كم هو محظوظ وكم هي تعيسة!.. كم حذرته من ميتة السوء هذه، لكن ماذا كان بيده أن يفعل وهو أكل عيشه الوحيد الذي يعرفه من صغره؟ كما أن خدمة البيوت هي أكل عيشها الذي سلكت سبيله منذ كانت طفلة، فبعد أن مات أبوها انقطع عنها وعن أمها المريضة مصدر الرزق الوحيد.

قالت لها أمها (سعاد):

- نادي خالتك وفاء.

(جارتهم في البيت المجاور)، فجاءت (وفاء) على الفور وعلى رأسها طرحة سوداء وضعتها على عجل، فقالت لها الأم:

- أنت تعلمين الظروف الآن، الرجل قد مات وأنا طريحة الفراش، أريدك أن تستعملي (فرح)، جدي لها عملًا يكفينا.

قالت (وفاء) بحزن:

- البنت صغيرة على خدمة البيوت، لا حول ولا قوة إلا بالله!.

قالت (سعاد) بحزم:

- لكنها لهلوبة، وهي من تنظف البيت منذ كانت في الثامنة.

ردت (وفاء) متفهمة الظروف:

- لا تقلقي يا حبيبتي سأتصرف، شدي حيلك.

وصلتها (فرح) إلى الباب ثم عادت إلى أمها لتجدها تبكي، وأشارت إليها لتعانقها عناقًا دافئًا طويلًا علّه يخفف من برودة ما هو قادم.

***

لم يمر يومان إلا وكانت (وفاء) قد وفرت لـ (فرح) عملًا، أسرة عائدة من الخليج لقضاء إجازتهم السنوية ويريدون أحدًا ينظف ويرتب الشقة الكبيرة قبل عودتهم، قامت بالعمل بإشراف (وفاء) وكانت ماهرة فعلًا وبدأت تتنقل من عملٍ لآخر، واستطاعت تحمُّل مسئولية الإنفاق على البيت فترة طويلة، أحيانًا تستقر في بعض البيوت للعمل اليومي، وأحيانًا تترك بيتًا ما لأن صاحب البيت سيء الخلق يطيل النظر ويمد يده أو سيدة البيت قاسية بخيلة..

وقد تعلمت مع الخبرة استشعار نوعية الناس مبكرًا، لكنها أيضًا تعلمت أنها لا تملك دومًا رفاهية ترك عملٍ لا يعجبها، أحيانًا عليها أن تصبر وتكتم وفي البيت متسعٌ للبكاء والغضب.

وبعد سنوات وسنوات عملت في بيت (جميل) بصورة متقطعة، رغم أنها شعرت أن (جميل) نفسه متغطرس إلا أنه قلما يتعامل معها

مباشرةً، بل أغلب التعامل عن طريق زوجته، كما أنه كان كريمًا، ويعطيها زيادة بمناسبة وبدون مناسبة، لذلك لم تحدث مشكلة بينهما.

***

حينما ارتفع حي أول إلى السماء كانت أسرة (جميل) ممن انتقلوا للعيش هناك بعد فترة من التجهيزات، وطلبوها للعمل معهم براتب أكبر فقبلت على الفور، وكلها أمل أن يساعدها الراتب الجديد في تجهيز بناتها للزواج بشكلٍ أفضل وأسرع.

***

هل سيفهم الناس أنها قاومت شيطانها كثيراً ورفضت السرقة؟ لكنها كانت تحمل بعض الحسد تجاه هؤلاء القوم.. كم مرة دخلت غرفة مخدومتها لتجد بضعة آلاف موضوعة بجانب السرير!.. فكرت ما لهؤلاء القوم؟ هل يستفزونها؟ ألا يعلمون أنها محتاجة لمعشار ما يلقونه من أموالٍ هنا وهناك بلا اكتراث؟.. ألا يفهمون أنها مضطرة للعمل بالمنازل؟!. مهما كانت معاملتهم محترمة فهو عمل مهين، أنا الذي أنظف قاذوراتهم وأجمع قمامتهم التي يأنفون حتى النظر إليها بيدي في أكياسٍ مجهزة للتخلص منها، وأنا من أنظف حمّامهم من الفضلات الملتصقة والروائح الكريهة التي يصدرونها، هل يحسبون أني أعشق هذا العمل؟..

تتحدث المخدومة مع صاحبتها في الهاتف عن الآلاف التي أنفقتها ليلة أمس على وجبة عشاء، وبضعة آلاف أخرى أمس الأول على طبق ذهبي أو حذاء جديد..

تتحدث كأن (فرح) نفسها غير موجودة، كأنها شيءٌ من الأشياء التي اشترتها وضمنت ولاءها التام وحرصها على مصلحتها، كأن (فرح) حين تسمع أن سيدتها قد اشترت حذاءً بألفي دولار ستسعد لها وتحتفل بهذا الخبر الرائع المريح للأعصاب، وتزف الخبر إلى أبنائها في سعادة!..

على الجانب الآخر، وإحقاقًا للحق، فقد كانت خدمتها في بيوت هؤلاء الناس ممتعة أيضًا، لأنها حين تقف في المطبخ وترى كل تلك الأواني والمأكولات أمامها فإنها تشبع لديها رغبةً لذيذة، وتنسيها فقرها قليلاً من الوقت.. خاصة عندما تتناول مما بقي من أطعمتهم التي تعلم يقينًا أنه يستحيل عليها أن تأكلها في بيتها بأموالها الخاصة!.. ناهيك عن الجو الهادئ ومكيفات الهواء ومنظر حديقة المنزل والمسبح الذي لا تشبع منه عينها التي تعودت على المساكن المكدسة والشوارع المختنقة.

كانت تحترق داخليًّا ما بين الاستمرار في الطريق الطويل الآمن أو سلوك الطريق المختصر المحفوف بالمخاطر، وفي نهاية

الأمر استسلمت لشيطانها، وسرقت سواراً ذهبياً خفيفاً، وأخفته في ملابسها، قدّرت أن سعره سيتجاوز العشرة آلاف جنيه، وقالت لنفسها «جواهر المدام كثيرة ولن تشعر باختفاء سوارٍ كهذا!». وقد كان..

ظلت مرتعبة لأيام بعدها، تأتيها الكوابيس ليلًا، وتترقب السيدة نهارًا، ويخفق قلبها لأدنى احتمال أنها قد كشفتها.. كلما سمعت «يا فرح» تنتفض.. فلما مر أسبوع كامل ولم تكتشف السرقة اطمأنت.. عرفت فيما بعد أن مخدومتها ظنت أن السوار قد وقع منها في النادي أثناء لعب التنس، وشكت في ذاكرتها هل أخذته ذلك اليوم أم تركته في البيت؟!..

فأخذت (فرح) السوار الذي كانت قد خبأته داخل ملابسها طوال ذلك الأسبوع، تذهب به إلى عملها احتياطًا لعلها تسمع السيدة تتساءل عنه فتلقيه تحت منضدةٍ أو سرير لتفلت من العقاب، وباعت السوار لتاجر ذهب في (تلا) بعيدًا عن مدينتها..

لم تكن تعرف أحدًا في (تلا)، لكن الأمر لم يكن صعبًا فبمجرد أن ترجلت من الميكروباص في موقف (تلا) سألت عن شارع الصاغة، وفي طريق العودة كادت أن تطير من السعادة، لكنها كتمتها إلى أن وصلت البيت.

وبعد شهرٍ من السرقة عاودت الكرَّة لكن هذه المرة سرقت التمثال الذهبي الفريد بخلاف السوار، والذي لم يمكن أن يفكر (جميل) أنه سقط من جيبه خلال الجري في النادي مثلًا!.

***

لم تنتظر الحافلة التي توصلها إلى أنابيب الانتقال بين الحيين، ولكن سارت بلا هدى ذاهلةً عن كل شيء، ثم توقفت عند حافة الحي وقد ضاقت عليها الدنيا، نظرت تحتها فرأت السماء الواسعة الرحيبة ثم نظرت إلى فوق فرأت حيَّ ثاني بكآبته المعهودة..

ونظرت تبحث عن بيتها البعيد وتتخيل مصائر بناتها الخمس، علمت أنها لن تستطيع لهم نفعًا طالما كانت حيةً، فلها ثلاث بنات يعملن في البيوت أيضاً ليساعدنها في النفقات، وخبر سرقتها سيتسبب في طردهن بكل تأكيد، فأخبار سرقات البيوت سريعة الانتشار، أما البنتان الصغيرتان فلم يئن أوانهما بعد، و(حسام) الصغير.. شبيه أبيه وقرة عينها، مصاب بتوحد جعله عالةً عليهن..

ولكنها إن ماتت فلعلهم يتخلصون من العار، شعرت بأنها قبر تحللت فيه جثث أحلامها منذ سنين، صغرت لديها الدنيا وقد بدا لها أن أحداً على وجه كوكب الأرض – وأرض حي أول معاً – لن يفهم ما تشعر به الآن مهما شرحت، قعدت على الأرض تبكي، خرجت

الدموع منسكبةً حتى لم تعد ترى، كان مريحًا أن تبكي دون أن تحتاج أن تغلق على نفسها بابًا، وأن تنتحب بحرية، أخذت تدعو:

«يا رب سامحني، والله ما قادرة، تحملت الكثير يا رب أنت أعلم بما فيّ!».

لم تكن المرة الأولى التي تحاول فيها الانتحار، لكنها لم تحاول منذ زمن بعيد، تملكها الأمل فترة، غرَّها بتحسن الظروف، لكن شيئًا ما بداخلها كان ينتظر القشة الأخيرة، تراكمت عليها الهموم، أخذت تمسح عينيها من الدموع وهي ما تزال تبكي، فكرت أن تترك رسالة لبناتها، أخرجت هاتفها بصعوبة وهي تمسح عينيها وأنفها، وفتحت برنامج محادثة وفتحت كاميرا الفيديو وبدأت تسجل.. أخذت تنشج وتبكي وتتكلم بكلماتٍ غير واضحة، وتقول:

«سامحوني سامحوني.. والله أفعل هذا لكم!».

كانت دموعها تتساقط على الهاتف وتعيق حساسية لمس الشاشة، أخذت تضغط على زر الإرسال ولكن الهاتف علق في حزنها فلم يرسل الفيديو قط..

قامت من جديد بعزم هذه المرة، نظرت إلى السماء تحت حي أول وغمغمت:

«سامحني يا رب!».

واستجمعت شجاعتها وتقدمت.. بمجرد أن قفزت ارتفعت لأعلى بسرعة لتسقط في حيز جاذبية حي ثان، صرخت قبل أن تسقط على الجانب الآخر مهشمة الرأس والعظام في بقعة من الأرض ملعونة، وبدأ الناس يتجمعون بحذر بعدما سمعوا صوت الارتطام..

سقطت فرح من السماء، ولم تكن تدرك أن ما فعلته سيغير كل شيء.

صادق

انطلق الإعلامي (صادق الحسين) بسيارته السوداء الفارهة من إحدى التجمعات السكنية الفاخرة بمدينة 6 أكتوبر إلى مدينة الإنتاج الإعلامي، حين اقترب من البوابة لاحظ أن حقيبته ظاهرة فتوقف على جانب الطريق المظلم ليخفيها تحت الكرسي المجاور له مفكرًا:

«لو رآها أمن البوابات سيطلبون تفتيشها فأتعطل بغير داعٍ، وهي لا تحتوي إلا على مجموعة أوراق للعمل!».

حين توقف، ولم يكن توقف في هذا المكان منذ سنين، شعر بالهواء ينعش رئتيه فأخذ يعبئهما منها بحنين إلى ماضٍ كان يضطر فيه بعض الأيام أن يمشي هنا على قدميه، بعد أن يتركه الميكروباص بعيدًا عن البوابة التي يريدها، الهواء المفتوح في تلك المنطقة المنعزلة جعله يبتسم ابتسامةً عريضة، حتى قويت الريح فجأة فأطارت عدة ورقات من سيارته المفتوحة، فجرى وراءها يلملمها بسرعة وعاد إلى سيارته، أغلق الباب وأعاد تشغيل مكيف السيارة ثم أكمل طريقه.

حين وصل إلى البوابة عرفه أفراد الأمن وقد اعتادوا على رؤيته في هذا الوقت من كل ليلة، فحيوه وفتحوا له الباب ليمر بسرعة ثم يذهب إلى أستوديو التصوير القريب من تلك البوابة..

كان مساعدوه في انتظاره أمام الأستوديو حيث ترك سيارته وسار مسرعًا إلى الداخل.. قال أحد أعضاء فريق الإعداد:

«تفضل يا أستاذ، هذه أهم العناوين التي ستتكلم عنها اليوم».

وقام آخر بمساعدته على خلع السترة التي يلبسها وإعطائه سترةً أخرى وضع له فيها دبوسًا عليه شعارٌ دعائي لإحدى الشركات..

والعنوان الرئيس الليلة في الأخبار هو:

(انتحار خادمة في كومبوند سوبريم بعد تهديدها بالفضيحة).

هذا هو الخبر الذي ستكون أغلب مدة الحلقة حوله، وستتلقى القناة الاتصالات من أجل مناقشته.. قعد (صادق) على كرسيه أمام الكاميرا يطالع الأوراق بسرعة ليلم بالموضوع قبل أن يبدأ التصوير

«أليس هذا هو المجمع السكني الفضائي إياه؟! يبدو أنها ستكون قضية مدهشة!».

ثم نادى المخرج بالعد التنازلي:

« 3.. 2.. 1.. هواء»..

كان الكلام مكتوبًا على شاشةٍ بجوار الكاميرا التي ينظر إليها (صادق)، بالإضافة إلى تعليمات المخرج وفريق الإعداد في سماعة الأذن.. كانت ملامحه جادة ومتأثرة وهو يقول بصوت حزين:

«أعزائي المشاهدين، أهلاً بكم في حلقة جديدة من برنامجكم اليومي (الحقيقة الكاملة)، أنا صادق الحسين وسأسعد برفقتكم في الساعتين التاليتين..

لعلكم تابعتم على مواقع التواصل الاجتماعي خبر انتحار العاملة المسكينة في مدينة طنطا، وتحديدًا بسقوطها من حي أول إلى حي ثان، في واقعة انتحار هي الأولى من نوعها.. الحقيقة أني قد أعددت لكم مع فريق الإعداد بالبرنامج مقطعًا ربما ستشاهدونه لأول مرة الآن، وهو ما سجلته كاميرات الطريق التي صورت اللحظات القليلة قبيل الحادث، والذي حصلنا عليه من مصدر خاص بطريق غير رسمية، وها هو ينشر لأول مرة.. دعونا نشاهد معًا أولًا مقطع تعذيب تلك السيدة الذي نشره الرجل الذي تعمل لديه، ثم بعدها مباشرة نرى المقطع الآخر»

***

اختفى (صادق الحسين) من الشاشة وظهر بدلًا منه المقطع المقصود.. ذلك المقطع الذي انتشر بعد ذلك في كل مكان تقريبًا،

على الإنترنت وبقية البرامج الإعلامية.. كان المقطع صادمًا.. واللقطة الأخيرة في الفيديو هي تجمُّع المارة حول الجثة المتهشمة على أرض حي ثان، والدماء المتناثرة حولها في بشاعة..

***

تلقى البرنامج عشرات المداخلات التليفونية وآلاف ردود الأفعال على مواقع التواصل الاجتماعي، تطالب بمحاكمة الرجل الذي كانت تعمل لديه هو وزوجته، لاستهتار الزوج بتصويره زوجته وهي تهين تلك المسكينة كأنها استعبدتها..

الجماهير غاضبة بشكلٍ كبير، وردود الفعل فاقت كل التوقعات، لكن رد الفعل الذي كان مباغتًا فعلًا هو الاتصال التي تلقاه (صادق) على هاتفه الخاص بعد الحلقة.. اتصال من (هاشم أبو العزم) مؤسس (سوبريم) نفسه، يلومه على تهوره بتأجيج مشكلة بسيطة كهذه يقول بصوته الأجش:

– هذه حادثة انتحار عادية تحدث يوميًّا في كل أنحاء مصر فما المشكلة؟!.. أنت بنشرك لهذا الفيديو، الذي سأعرف من سربه لكم ليعاقب العقاب المناسب، قد تسببت في تأجيج الرأي العام ضد كل سكان حي أول، وإظهارهم على أنهم مجرد مجموعة من الأثرياء المتسلطين الذين لا يبالون بغيرهم!.. لا يا أستاذ صادق أنا إنسان

جدًا وأعرف قيمة الإنسان، وكذلك كل شركائي في حي أول الذي يمثلون لي أسرة كبيرة ويعتبرونني أبًا لهم.

أخذ (صادق الحسين) يرد عليه بلباقة بادئًا جملته كل مرة بـ:

- مع احترامي لمعاليك.. تاريخكم معروف طبعًا يا هاشم بك، وهذه القضية لا تمسك أبدًا..

موضحًا أن هدف البرنامج هو تسليط الضوء على ما يهم الرأي العام وليس الانحياز لجانبٍ دون آخر.

حينما أتى ذكر الحيادية تحديدًا قاطعته ضحكات (هاشم أبو العزم)، كانت ضحكات ساخرة، ضحكات متعاليةً أنهاها ببطء كما لو أنه أراد أن تدوم للأبد.. انزعج (صادق) بشدة من هذه السخرية، لكن (هاشم أبو العزم) لمح بأنه يعرف تاريخه جيدًا، ذلك التاريخ الذي لم يكن يعرف أن أحدًا يهتم به، ولكن من الواضح أن (هاشم) يهتم!..

صمت (صادق) لا يدري ما يقول، فقاطع (هاشم) صمته ليعرض عليه عرضًا مغريًا إن هو هدَّأ وتيرة الضجة الإعلامية التي أحدثها ذلك الحادث..

«ومن يدري ربما نجد لك فيلا هنا في الجوار!» ..

فوعده بأن يفكر في الأمر..

***

انتهت المكالمة وبدأت الذكريات تنحط على (صادق الحسين).. ذكريات كان هو نفسه يتناساها.. تذكر كيف نشأ في مدينة (ديروط) في صعيد مصر، وكان يحلم بأن يكون مثل من يراهم ويقرأ لهم من أساطين الصحافة، يرى لقاءات (هيكل) ويقرأ كتبه مبهورًا، ويقول لأصحابه:

«لا أحسب أن رجلًا مثل (هيكل) قد يموت أبدًا!».

فيسخروا منه، فينصرف عنهم.

تفوق رغم ظروفه الصعبة، ودخل كلية الإعلام في جامعة القاهرة وتخرج في قسم الصحافة.. حين علم بنجاحه وتخرجه بتقدير (جيد جدًا) كان في (ديروط) فأخبر والديه اللذين باركا نجاحه، ثم قضى بقية اليوم جالسًا وقد شمّر جلبابه إلى فخذيه عند القناطر الخيرية إلى منتصف الليل يتأمل المياه ويحلم.

***

الأحلام سهلة، أما تحقيقها فقد عمل في أماكن لا حصر لها وعاش أفقر عيشة تتخيلها، كم مرت عليه من أيام كاملة لا يأكل

فيها شيئًا.. واضطر شهرًا كاملًا للمبيت في الشارع لأنه لم يكن يملك تكلفة الإيجار، فكان يدخل أحد المساجد الكبيرة المجهزة بمساعدات الناس ليشرب ماءً نظيفًا منقًّى وينام ما استطاع ثم يخرج.. حينها فقط كان يحن لـ(ديروط) التي لم يعد له فيها أحد يهمه بعد وفاة أبويه، فألقى مرساة انتمائه في القاهرة كما يفعل الكثيرون كل يوم..

«لا بد لي من التنازل قليلًا، لا بأس بالتودد إلى هؤلاء الكبار، حتى أكون علاقات تسحبني بعيدًا عن القاع الذي أنا فيه، هذا ليس تملقًا بل لباقة.. نعم.. على كل إنسان أن يكون لبقًا يحسن للآخرين بالكلمة الطيبة».

ولكن في أعماقه كان يعلم أن الأمر لن يكون مجرد كلمة طيبة.. وكانت تلك أسوأ فترات مسيرته المهنية، لأنه اضطر فيها لنشر أخبار مسيئة لشخصياتٍ معروفة على سبيل المجاملة لمنافسيهم، وكان ينشرها تحت أسماء وهمية أثناء عمله في بعض الصحف الصفراء.. هذا الجزء من تاريخه تحديدًا هو الذي كان يخاف أن يُعرف عنه، لأن بعض هؤلاء الذين فضحهم صاروا الآن من أقرب الشخصيات الهامة إليه، ولا يدرون أنه هو الذي نشر عنهم تلك الأخبار.. بل إنهم ربما تصالحوا مع منافسيهم الذي كان يعمل لأجلهم..

«كان يمكنني فيما مضى أن أنشر فضائحهم كما أريد، أما الآن فقد صاروا أقوى وأشرس.. إنني لا أقدر على عداوتهم بكل تأكيد، سيسحقوني غير آسفين!».

***

بعد فترة تم إغلاق الجريدة لغباء إدارتها في الإساءة لكل من بيده سلطة إغلاقها.. حينها ولت تلك المرحلة من حياته..

***

أخذ يبحث عن نقطة انطلاق جديدة، وقد شعر بأن الصحافة لن تروي شغفه أو تلبي طموحه، إلى أن أتته الفرصة ليعمل في إعداد برنامج لإعلامي شهير.. كان عمله مختلفًا نوعًا ما عن طبيعة العمل الصحافي، وكان هذا تغييرًا جيدًا لكن المشكلة أنه كان دومًا خلف الكاميرا، بعيدًا عن الأضواء التي يحلم بها.. ولكنه بعد ثلاثة أعوام من العمل الدؤوب والأجر المعقول حدثت مشكلة بين الإعلامي مقدم البرنامج وبين صاحب القناة، فقد طلب منه قبل بدء الحلقة بدقائق أن يهاجم أحد منافسيه لغرضٍ طارئ، وهو شيء مضحك، فأي غرض طارئ يجعل شخصًا ما يسخِّر شخصاً ما للسخرية من شخص ما على الهواء مباشرة؟!.

فرفض بإباء أن يملي عليه أحد ما يقول، مما دفع المليونير صاحب

القناة إلى إهانته في واقعة ظلت تتردد في أروقة الإعلام فترةً طويلة، «أنسيت نفسك؟ أنا الذي صنعتك وأنا الذي أعطيك راتبك!».

واشتد بينهما الخلاف فغادر الإعلامي الاستوديو مدافعًا عن كرامته وواضعًا المليونير في مأزق، إلا أنه بكل غرور سأل الحاضرين من فريق الإعداد:

«من منكم يقدر أن يحل محل ذاك الأحمق؟».

نظر كل منهم إلى الآخر في دهشة، فعلى الرغم من أن هذا حلم للكثير لكنهم غير مستعدين بكل تأكيد، كما أن عليهم أن يبدوا بعض المؤازرة للإعلامي الذي رحل اعتبارًا للعيش والملح.. الوحيد الذي لم يفكر لحظة هو (صادق الحسين)، قام مباشرة وعينه تلمع بالفرحة وقال: «أنا!»..

تأمله المليونير في تقزز وقال لمن حوله:

«ليعطه أحدكم بذلةً نظيفة!».

ثم غادر الأستوديو مباشرة.

لم يكن هناك وقت، فأخذ (صادق) البذلة وهو لا يستطيع كتم فرحته، وبدأ يغير ملابسه في الأستوديو والجميع ينظرون إليه في دهشة، وهو يخلع ملابسه الرخيصة حتى كاد يصير عاريًا، ثم

بدأ يرتدي البذلة وهو يتأمل نفسه في كاميرا الهاتف الأمامية غير مصدق، تقدم أمام الكاميرا حافيًا من العجلة، وهو يعلم أن قدميه لن تظهرا في كادر الكاميرا، وجلس إلى الكرسي ومعه ورق الحلقة منتظرًا العد التنازلي من المخرج.

المدهش أن الحلقة كانت رائعة، وكأن (صادق) يتدرب عليها منذ سنين، وهو ما ظل يتساءل عنه بقية زملائه في فريق الإعداد الذين صاروا الآن مساعدين له..

***

الحقيقة أنه كان بعد إعداد كل حلقة منذ بدأ العمل في ذاك البرنامج يتخيل نفسه يلقيها أمام الكاميرا، يقف أمام مرآةٍ في غرفته ويتظاهر أنها عدسة كاميرا، ثم يستدير بكل بساطة للمرآة الأخرى وكأنها الكاميرا الثانية، يلقي النكات المضحكة على المرايا وأحيانًا يتظاهر بالتأثر عند الحديث عن خبرٍ مؤسف، فيبدي التعاطف الملائم ليحظى بلحظاتٍ لا بأس بها من المتعة، ثم ها هو الحلم قد تحقق، وفرصته قد أتت أفلا يقتنصها؟.. ها هو يجلس أمام الكاميرات ليعيد ما تدرب عليه مرارًا.. لم يكن يخاف سكون الكاميرا ولونها الأسود المخيف وهي تنظر إليه بلا أي تعليق على ما يقوله، يخاطبها بلا رد إلا نظرتها الصامتة التي توحي بأنها تعرف كل شيء، أو بأنها

لا تفهم مما قاله أي شيء.. بل كان ذلك يرضيه، فهو لا يريد إلا أن يقول ويقول، والكل ينصت أخيرًا.

***

جاءت نتائج إذاعة الحلقة مبشرة بالنسبة لإعلامي يظهر على التلفزيون لأول مرة في حياته.. ولأن صاحب القناة كان رجل أعمال حاذقًا عرف أن أمامه نجمًا صاعدًا.. إن استطاع أن يوقع معه عقدًا طويل المدة الآن سيقبل به أياً كان الأجر، وبذلك يربح على المدى البعيد، وكما توقع فقد قبل (صادق الحسين) التوقيع معه على الفور بدون شروط..

عرف فيما بعد من زملائه أن عقده كان أقل من متوسط العقود بين زملائه، إلا أنه قال لنفسه «أنا إعلامي وهناك مصادر دخل أخرى للإعلامي غير الراتب.. نعم فهناك الهدايا الثمينة التي يستطيع أن يتلقاها من رجال الأعمال والمشاهير الذين ينشئ علاقاتٍ طيبة معهم ويزين صورتهم في برنامجه، وعلاقات قوية مع أهم الأشخاص في البلد.. وهذه هي قوتي وثروتي الحقيقية إذا نحتُّ طريقي إلى القمة». وهو ما نجح فيه (صادق)، بخلاف سلفه الذين كان ينحو الحيادية.

***

والآن بعد مكالمة (هاشم أبو العزم) صارت لديه مهمة جديدة وهي أن يعكس الاتهامات التي وجهها في حلقته لـ (جميل) و(سوبريم) إلى السارقة مدعية البراءة (فرح)!.

حين خرج من الأستوديو إلى سيارته ثم إلى البوابة قرر أن يتوقف مرة أخرى عند المكان الذي توقف فيه قبل الحلقة، شعر أنه يحتاج الاحتفاظ ببعض ذلك الشعور الذي تفلَّت منه الآن، لكنه حين ووقف بنفس المكان، ونزل من سيارته لم يشعر بأي نسمة هواء..

المكان المفتوح هو هو، والصحراء هي هي، لكن الهواء سكن بشكلٍ غير معقول.. أخذ يقفز في مكانه كالأطفال ويصيح مخاطبًا الهواء «هيا، أريد نسماتٍ أخرى قبل أن أرحل»..

لكن شيئًا لم يتغير.. انقبض قلبه وهو يعود إلى سيارته غير مطمئن.

حكيم

قامت قوة من شرطة حي ثان بإحاطة مكان سقوط فرح، حيث سقطت في (مدار الشمس) وهو الاسم الذي سماه الناس للدائرة في حي ثان الواقعة خارج ظل حي أول وقت الظهيرة، فإن الشمس حينما تتعامد على حي أول المقلوب في السماء يجثم ظل الحي على حي ثان تحته، فكان أهل حي ثان يحبون ذلك أول ما جاء النيزك لما يظلهم به أحوج ما يكونون إلى الظل، خاصةً في فصل الصيف الذي صار يمتد أثره مؤخرًا إلى أكثر من نصيبه المفروض، وكانوا يسمونه (ظل الظهيرة)، فلما تحول حي أول إلى (سوبريم) كومبوند المترفين واتسعت الهوة بين الحيين، وشعروا بالقهر، صار سقوط الظل عليهم ثقيلًا يذكرهم بأن فوقهم جنة تملأ الأعين ولا تطالها الأيدي، فكرهوه بعدما كانوا يحبوه.

على كل حال فقد هجر الناس (المدار) بعد حادثة قديمة حينما سقطت كلاب أو ألقت بنفسها بعد ما ضلت طريقها إلى أصحابها، بُعيد حادث النيزك الذي شطر المدينة، فخافوا أن يسقط عليهم شيء من حي أول في أي وقت، فصار الناس يتجنبوه ما أمكن إلا

في الطرق التي لا بد منها للخروج والدخول من وإلى طنطا ونحو ذلك، حتى أن الجزء الذي كان مزروعًا من المدار تصحَّر مع الوقت.

أما الجزء من المدار الملاصق للحفرة التي كانت مكان حي أول فيما مضي، فقد صار مرتعًا لتجار المخدرات ومدمنيها، فهي مهجورة تمامًا إلا منهم.

قام فريق من البحث الجنائي بتجميع الجثة التي تحطمت عظامها وخرجت أحشاؤها بعد سقوطها على بعض أدوات البناء المهملة في أرجاء تلك البقعة، وتناثرت بشكل مريع..

استطاعوا تجميع كل الأحشاء تقريبًا، وذهبوا بها إلى مستشفى (المنشاوي) العام، حيث قام الأطباء بخياطة الجثة بعد إعادة أحشائها إليها، ما عدا القلب الذي لم يجده فريق البحث، وفي اليوم التالي استلمت بنات (فرح) جثمانها بعد التعرف عليه وتأكيد هويتها التي لم تكن تحتاج إلى تأكيد..

علا نباح الكلاب المنزعجة من تجمهر الناس في أحد الشوارع المتفرعة من شارع (الجلاء) حول بيت (فرح) ليلًا في انتظار مجيء الجثمان، وقد أضفى ذلك حالةً من عدم الارتياح على البنات اللاتي لم يعتدن هذا الزحام، كانوا في انتظار تغسيلها والخروج جميعًا لدفنها، حتى جاء (حكيم) المحامي، يرتدي بذلةً رخيصة يدخل

أحد ذراعيها في جيب السترة مكان ذراعه المقطوعة، وسّع له الناس الذين يعرفونه، فلما وصل إلى البنات كلمهن بكلام فأبدين الرضا بما قال، فاستدار إلى الناس وطلب منهم الرجوع إلى بيوتهم والعودة غدًا حتى ندفن الجثمان بالنهار، ونترك للبنات فرصة لتوديع أمهن.. كان فصيحًا يعرفه الناس ويرضون قوله، فوافقوا وانصرفوا وانصرف هو مع صاحب له مرَّ معه على متجرٍ لأسماك الزينة والعصافير، ثم إلى المقهى.

***

أغلقت (آمال)الابنة الكبرى الباب وأطلقت تنهيدة، ثم خلعت خمارها الأسود وألقته على أقرب كرسيّ، وخطت ببطء إلى اليمين، إلى إخوتها الجالسين على الأرض حول أمهم يبكون.. كانت مغطاة بالكامل حتى الوجه كما جيء بها من المستشفى.. فإن كشف الوجه لم يكن مفيدًا لأي محب بعد تهشمه وتشوه ملامحه، وكانوا يخشون احتضان الجسد كأنه قد ينكسر باللمس.. أُمُّهم أمامهم إلا أنهم يهابون الجثمان بقدر محبتهم، وَجِلون بقدر غضبهم ودهشتهم.

لما جاءت الْمُغَسِّلة غسلت الجسد بالمياه خفيفًا خفيفًا خشية أن تؤذيه، وطيبته بالعطر، وقد أرضى هذا أبناء (فرح).

ألقت (آمال) ببصرها إلى الركن الآخر حيث قعد (حسام) ابن

العشر سنوات على الأرض ناظرًا إلى الجدار، ضامًّا إليه ركبتيه وهو يهتز إلى الأمام والخلف، إنها إحدى ردود أفعاله غير المفهومة التي قد اعتادوها منذ صغره لما كان عمره ثلاث سنوات، حين علموا إصابته بالتوحد، هكذا ينعزل عن كل ما حوله في لحظة، وعلى الجميع أن يتفهم هذا، يرفض العناق، يرفض حتى اللمس البسيط إن كان منزعجًا، ماذا سيفعل الآن وقد فقد أهم شخص في حياته؟ كيف سيتفهم ما فعلَت؟ انتقل همه الآن إلى أخواته لينفقوا عليه، بينما هو ينظر إلى فتات خبز وضعه جوار الجدار ليطعم فأرًا يتعهده بدون علم أخواته.

ثم نظرت إلى الأمام مرة أخرى لترى أختيها الصغيرتين (هدى) و(نورا) تبكيان بلا انقطاع، صغيرتان في المدرسة الابتدائية، كانت (فرح) ترجو أن يصير لهما مستقبلٌ في التعليم، وبجانبهما (سحر) التي ثبتت نظرها على الجثمان، وهي ابنةٌ يافعة والأخت الأصغر من (آمال) والتي تعمل مثلها في خدمة البيوت.. اقتربت (آمال) منها بلطف ومالت إليها لتحتضنها فدفعتها بقسوة، وعلى وجهها بدا الغضب الذي وشى بنارٍ تشتعل داخلها.

رأفت (آمال) بأختها فتركتها تحزن في هدوء، ورفعت قليلاً من صوت القرآن الكريم المشغل من هاتفها المحمول، لعله يلهمهم السكينة ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾.. وكلما

نظرت إلى أمها لا تستطيع أن تدرك كيف فارقت الروح الجسد بهذه البساطة؟ هل ماتت تماماً؟ أين هي الآن؟ هل تدخل الجنة أم النار؟ كيف أضمن أن الله غفر لها ما فعلت؟ هل هي أمٌ طيبة تستحق الجنة أم سارقة وقاتلة لنفسها بغير حق فتستحق النار؟ ماذا سيحدث لي حين أموت مثلها؟. فتدخل في نوبة بكاء!..

بعد عدة ساعات دخلت البنات غرفتهن ونمن الواحدة تلو الأخرى من التعب، ولم يبقَ مع الجثمان إلا (حسام)، وفي المنام رأت (سحر) نفسها تخرج في نفق مظلم لتجد جثمان أمها على فراش وسط صحراء، فتجلس (فرح) وتنظر إليها بوجه صارم قائلة:

«اغسلي لي ثيابي!».

فقامت من نومها فزعة لتجد (آمال) تستيقظ معها في نفس الوقت وعليها آثار الفزع نفسه، قالت (آمال):

- رأيت أمي.. قالت لي اغسلي لي ثيابي!.

بكت (سحر) لأول مرة وهي تخبرها أنها رأت نفس الرؤيا، تساءلتا عن معناها، قالت (سحر):

- أي ثياب تقصد؟ ألم ينزعوا عنها كل الثياب في (المنشاوي)؟

فكرت (آمال) وهي تتأمل حائط الغرفة الأخضر الباهت الذي

يعكس في كسلٍ ما يصل إليه من ضوء مصباح الصالة وقالت:

- الرؤى قد لا تكون على ظاهرها، وماذا سيفيدها غسل الثياب؟! لكني شعرت كأنها تطلب المساعدة، ربما تحتاج أن ندعو لها.

انعقد حاجبا (سحر) هي تهز رأسها رافضة هذا التفسير وأمعنت النظر في لمعة انعكاس الضوء على الحائط، تتذكر وجه أمها في الحلم فقالت بشيء من الحماس:

- كأنها تريد مني أن أنتقم لها، كأنها تقول بردي ناري، أو خذي بثأري، فوجهها كان يبدو عليه عدم الارتياح.

هنا شعرت (آمال) بالقلق فهي تعرف أختها جيدًا وتعلم أنها إن أصرت على شيء فلن يرتاح لها بال حتى تتمه، فقالت آملة أن يكون لكلامها فائدة:

- أرجوك لا تندفعي، لم تكن أمنا قط لتريد منا أن نؤذي أحدًا.

ردت (سحر) بغضب مستنكرة:

- تريدين أن نصمت ونبتلع ما حدث ونعيش حياتنا بسهولة كأن شيئًا لم يحدث؟!.

ذرفت دموعًا متخيلة كيف ألقت أمها بنفسها وردت في ضعف:

- وما الفائدة؟ وأنت تعرفين أن أحدًا لم يقتلها، بل هي التي

اختارت ما فعلت، أرادت أن تحمينا وتحمي سمعتنا بعدما حدث، فدعي الأمر يمر أرجوكِ.

قالت وهي تعطيها ظهرها:

- ألم تري كيف ضربتها تلك المرأة؟ ما الفرق بينك وبينهم؟!.

هنا أتى (حسام) من خارج الغرفة.. وقف عند الباب فحجب ضوء الصالة، وحدق في الجدار المظلم، لا إليهما، بعينيه الضيقتين اللتين تشبهان عيني أبيهم وقال:

- حلمت بأمي!.

***

في صبيحة اليوم التالي بدأ الناس يتوافدون فرادى وجماعات أمام البناية التي سكنتها (فرح)، يتناقشون فيما حدث ويقررون ماذا سيفعلون، وهم ينظرون إلى الأعلى ليروا حي أول من بعيد هادئًا كأن أحدًا لم يمت ظلمًا، كان مسكن (فرح) في بناية عريضة عبارة عن مساكن جماعية، كل شقة فيها كفصل في مدرسة إلا أنها أوسع قليلًا، تتكون الشقة من صالة، وحمام بعدها، ومطبخ مقابل له، ثم غرفتين للنوم.

إلى أن قرب وقت أذان الظهر فخرج بضعة رجال يحملون

الجثمان على نقالة خشبية فبدأ الناس في ترديد:

«لا إله إلا الله»

بصوت مسموع.. بعضهم يسبق الجثمان والبعض الآخر يتأخر متجهين جميعًا إلى (مسجد عوارة)، وفي الطريق بينما اكتفى البعض بمشاهدة الجنازة المهيبة من النوافذ، انضم الأكثرية إلى المسيرة.. بينما قال رجل يدعى (وحيد):

«من (فرح) هذه التي صارت ذات قيمة فجأة، إنها سارقة والكل يعلم ذلك وكلكم رأيتم الفيديو الذي صوروه لها؟!».

وافقه البعض بأصوات خفيضة .. بينما سبهم السائرون في الجنازة وقالوا باحتقار:

«أنتم ممن يحبون ظل الظهيرة!».

وتركوهم ومضوا، بينما قال (وحيد) لرفقته دون أن ينظر إليهم:

«لست ممن يحبون الظل، ولكني أعرف ما يخبئه وينتويه ذلك المحامي وأعرف سر ذراعه المقطوعة! تعالوا سأحكي لكم قصة (حكيم)»..

كان يحب حكاية القصص، وكان له أسلوب جذاب في حكايتها يحفظ انتباه السامع إلى النهاية، لكن قصصه لم تكن دومًا

قابلة للتصديق.

وصل السائرون مع الأذان إلى المسجد ليجدوا آخرين منتظرين الجثمان في المسجد للصلاة عليه، وقد قدر عدد المجتمعين للصلاة يومها بنحو مائة ألف إنسان..

امتلأ المسجد عن آخره وافترش الناس الطريق خارج المسجد، وأغلقت عدة شوارع بسبب الازدحام، وبمجرد انتهاء صلاة الظهر تقدم (حكيم) المحامي للصلاة على (فرح)، وطلب من المصلين الاقتراب وتضييق الصفوف ليستطيع الجميع الصلاة معهم، وبدأ الصلاة وحين كبر التكبيرة الثالثة التي يدعو فيها للمتوفى أطال الصمت حتى تعالت أصوات البكاء بين المصلين وهو يدعون بإخلاص، ثم كبر الرابعة وسلم فسلم الناس.

بعد انتهاء الصلاة سار الناس بالجسد يتقدمهم (حكيم) إلى المقابر القريبة في سكونٍ تام، وظل الناس ساكنين إلى أن انتهت مراسم الدفن حيث أخذت بنات (فرح) يبكين ويتعالى صوت نحيبهن.

تنحى (حكيم) ببعض الرجال وهمس إليهم بكلام، فانتشروا بين الناس وأخذوا يصيحون في الناس ألا يتركوا الأمر يمر بسلام، لا بد من التوجه إلى أنابيب التوصيل إلى حي أول والتظاهر عندها.

بعض الرجال كانوا يحملون المناظير المقربة، فأخذوا ينظرون إلى حي أول من فوقهم، فرأوا سكان الحي يتنزهون في الطرقات وبعضهم يسبح في حمامات السباحة المنتشرة بأجسادٍ مكشوفة، لا يعبؤون بالهم الجاثم على صدور جيرانهم، فأخذ الرجال يتبادلون المناظير وهم يمتلئون غيظًا وقرروا الذهاب إلى الأنابيب جميعًا..

وبمجرد وصول العائدين من الجنازة إلى الأنابيب انتشر الخبر بين سكان حي أول الذين انتفضوا وأخذوا يراقبون بمناظيرهم هم أيضًا، فقرر سكان حي ثان أن يصعِّدوا الأمر ويوقفوا العربات ليمنعوا أي أحد من الدخول أو الخروج إلى حي أول..

كان وصولهم السريع مفاجئًا بالنسبة للشرطة التي لم تكن تتوقع التصعيد السريع لما حدث، لكن اجتماعًا في قسم ثان دار بسرعة ليقرروا الطريقة الأمثل للتدخل، خاصةً مع الأعداد الضخمة التي لم يعهدوا تجمعها من قبل في طنطا الهادئة بطبيعتها.

رفض أفراد الأمن المسئولون عن أمن الأنابيب أن يشاركوا أصحابهم التظاهر، خوفًا على وظائفهم، لكنهم أُجبروا على عدم السماح لأحد بالدخول أو الخروج.

أخذ الناس الذين زاد عددهم بمرور الوقت ينادون بالقصاص من القتلة الذين تسببوا في مقتل (فرح)، ويطالبون بالقبض على

(جميل) وزوجته..

هذا الوضع المتوتر أدى إلى رعبٍ في الأعلى، حيث لا يستطيع أحد المغادرة لعمل أو غيره، واستمر الأمر هكذا حتى الليل.. افترش الناس الشوارع وأتى بعضهم بالطعام لبعض، وفي نهاية اليوم ناموا في أماكنهم..

قال بعض أثرياء حي أول:

- ألم يكن أفضل لو كان المطار هنا الآن؟.

فرد عليه آخر:

- حتى لو أردنا أن يكون المطار هنا فكيف ستنتقل الطائرات بين الجاذبيتين؟ الأمر ليس بهذه السهولة.

كانت الشرطة قد قررت أن تداهم مواقع الأنابيب وفقًا للأوامر التي جاءتهم، فقاموا بحشد مجموعةٍ من القوات وألقوا القنابل المسيّلة للدموع، إلا أنهم لم يستطيعوا اختراق التجمعات العظيمة من المواطنين الذين أحاطوا الأنابيب من كل جانب ما عدا «مدار الشمس» خشية أن يلقى عليهم شيء من حي أول فيؤذيهم.

أدت تلك المداهمة إلى قدوم المزيد من الناس الغاضبين ليساندوا إخوانهم وارتداء أقنعةٍ مصنوعة يدوياً لمقاومة الغازات..

عرف قائد الشرطة أن الأمر خارجٌ عن السيطرة، وأن تدخلهم الآن لن يحل أزمة بل سيتسبب في إحداث كراهية ضد الشرطة نفسها، وربما يتطور الأمر إلى إحراق سيارات الشرطة واستهداف بعض عناصرها كما حدث من قبل في أحداثٍ شبيهة، فقرر التراجع قليلًا وإعادة الحسابات بعد التواصل مع القيادة في الوزارة..

حينما أعلنت الشرطة في بيانٍ إعلامي دعمها لحق التظاهر وإبداء الرأي، فرح المتظاهرون واعتدوا بإنجازهم الذي بدأ الجميع ينصاع له.. لم يعد الفقر عيبًا، هم بشر يستحقون أن يُسمع لهم.. لم يقتصر بيان الشرطة على ذلك بالطبع بل أكد على ضرورة مراعاة مصالح سكان حي أول، وإتاحة الدخول والخروج بحرية وعدم تعطيل الحركة المرورية بين الحيين، لكن المتظاهرين لم يكترثوا بهذه التفاصيل. كان الأهم بالنسبة إليهم هو اعتراف جهةٍ رسمية بحقهم في شيءٍ ما، وقد حُرموا كثيرًا.. فمنذ ارتفاع حي أول للسماء وقد بدأت التضييقات عليهم تدريجياً، خاصة بعد تحويله لمجمعٍ سكني لأصحاب الملايين..

كثير من سكان حي ثان قد فقدوا ميزاتٍ أساسية، فأهم الكوادر تسهر على راحة السادة في الأعلى، وذلك الاستقطاب تسبب في ارتفاع أسعار كل شيء، فالأراضي والعقارات ارتفع سعرها وسعر إيجارها للزحام الذي ترتب على تهجير فقراء حي أول إلى حي ثان،

وتضاعف العدد مع ثبات فرص العمل أدى إلى ارتفاع الطلب على الوظائف وقلة العرض، مما جعل الناس يقبلون بأي وظيفة مهما قل الراتب، لأن البديل لذلك هو السفر للعمل في المحافظات الأخرى، وليس كل شخص يقدر على ذلك.

وبعد ثلاثة أيام من الاعتصام عند بوابات التنقل بين الحيين بدأ اسم (حكيم) في التردد على الألسنة..

«(حكيم) سيأتينا بحقوقنا فهو محام حذق ذو مواقف شجاعة.. إنه أمهر محامي جنايات في الغربية»..

«ولكن ماذا عن يده المقطوعة؟»

«الإشاعات كثيرة، المهم أن يحصل لنا على حقوقنا».

جاء (حكيم) على مهل وقد تجمع الناس حوله في حب وأمل، وهو يبتسم أحمر الوجنتين، قدموه إلى منصة يتحدث عليها قادة المتظاهرين، فصعد عليها وتوجه إليهم يرفع يده السليمة مستقبلاً الترحيب وصيحات الجمهور، حتى انخفضت الأصوات فبدأ بالكلام وقد ذهب الخجل وظهرت ملامح الجدية كأنه في قاعة محكمة:

«إخواني أبناء حي ثان، إن ما حدث ما أختنا (فرح) ليس مجرد إهانة أدت إلى انتحار، بل هو قتلٌ عمد.. أنت لا تتصور أن تهين

إنساناً وتفضحه وتنهي مستقبله وآماله أمام عينيه، ثم تتوقع بعد ذلك أن يمضي في حياته سعيداً يتقبل الهزائم بصدر رحب.. لقد قتلوها.. قتلوها مع سبق الإصرار والترصد!».

تعالى صوت الجمهور الغاضب وقد تأثروا وبدأت النساء في النحيب مرة أخرى..

تركهم حكيم يصيحون قليلاً وهو زاهٍ بتأثيره عليهم ثم أشار إليهم ليكمل حديثه:

«نحن هنا من ثلاثة أيام ولم يهتم بنا أحد، أرادوا صدنا فقط بقنابل الغاز ثم خشوا على أنفسهم.. لكن إلى متى سيصبرون؟ سيصبرون حتى نرجع إلى بيوتنا ووظائفنا القديمة لأنهم يعلمون أننا فقراء لا نستطيع أن نعيش في صومعةٍ لمدة شهر بأغذيتنا المخزنة مثلهم.. ولذلك علينا أن نصعد الأمر.. انتبهوا جيدا، من الآن لن يدخل أو يخرج أي شخص من منافذ حي أول ولو كان مريضاً!»..

صاح الناس مرة أخرى في حماس بينما بدا القلق على القليل منهم فهذا القرار لا يبدو إنسانياً، بل هو أقرب للقتل المتعمد لحالات الطوارئ..

«أعلم أن بعضكم يفكر ويقول (وماذا عن حالات الطوارئ؟ هذا قتل عمد) تذكروا جيداً أنهم بدؤوا هذا الأمر منذ زمن.. أليسوا

أغنياء؟ فلنر كيف سيستغنون عنا؟! ولكن المهم الآن أن نترابط ونكون جميعاً على قلب رجل واحد»..

ثم صاح:

«هل ستفعلون ذلك لأجل فرح؟»

ارتفعت الأصوات:

«نعم، نعم!».

في تلك الأثناء، وبينما كانوا يغلقون المنافذ إلى حي أول، كانت هناك امرأة مكلومة من أثرياء حي أول تنتظر سيارة الإسعاف التي ستنقل ابنها، تلك المرأة هي (نادية).

نادية

كانت نادية تنتظر سيارة الإسعاف من أجل ابنها (وائل) غير مدركة أن تلك السيارة قد لا تصل أبدًا..

بالتأكيد توجد سيارات إسعاف في حي أول لكنها كانت تنتظر سيارة خارجية ستأخذها إلى خارج الحي..

أخذت تتأمل وجهه الذي ارتاح قليلاً بعدما أخذ حقنة من المسكِّن الذي وصفه له طبيب الأورام المتابع لحالته..

كان قد أخبرهما أخيراً أن الوقت قد حان لإجراء عملية جراحية لإزالة الورم الجاثم على قولونه.. لم تكن احتمالية الشفاء عالية لكنها كانت كافية لوجود الأمل..

عبءٌ كبير لتحمله وحدها، لكنها كالجبل إذا كان الأمر متعلقاً بابنها الوحيد..

نشأت (نادية) في عائلة ثرية ذات أصولٍ تركية، سفل بهم الحال فترة من الزمن، عانوا فيها الأمرّين، فالدنيا لا تدوم لأحد، لكن نتيجة لصلة عائلتها برجل يسمى (نزيه لطفي) اختلف وضع أسرتها

تمامًا، فـ (نزيه) كان يحرص على صلة أقربائه ذوي الأصول التركية ويحاول أن يرفع من شأنهم بين علية القوم، فساعد أباها بوظيفة كبيرة ويسر لهم شراء بعض الأراضي بأسعارٍ رخيصة، وزوج (نادية) من ابنه فارتفع حالهم مرة أخرى في بضع سنين، لذلك فهي قد جربت الفقر وفهمته وصارت تخشاه، وجربت الثراء وأحبته ولا تريد سواه.

مع التقارب الذي حدث بين عائلة (نادية) وعائلة (نزيه لطفي) والإعجاب بأصلهم الطيب، طلب (نزيه) من أبيها أن يزوجها لابنه (محمد).

لم تمانع (نادية) التي كانت في الرابعة والعشرين، رغم عدم وجود انجذاب حقيقي بينهما، على الأقل من ناحيتها، وسعد أهلها بذلك النسب.. بعد زواجها بمدة قصيرة توفي أبوها وهو مطمئن عليها، لكنها تألمت لفقده بعد انتقالها لبيت زوجها بتلك السرعة، كانت تتمنى أن يبقى لها سنداً، ثم ماتت أمها حزناً عليه.. فشعرت (نادية) بالغربة في عالم غير مأمون..

كان (محمد) شاباً مدللاً، لكنه يحب عائلته ويفخر بها ومستعد للتضحية من أجلها.. وقد أحب (نادية) شيئاً فشيئاً، وأراد أن يسعدها، فعل كل شيء لها وأتاها بكل ما تشتهيه نفسها، وقد أرضاها

ذلك، فعاشا في سعادةٍ منقوصة خمسة عشر عاماً لم يُرزقا فيها بولد، رغم قيامهما بالعديد من عمليات الحقن المجهري مع أمهر الأطباء، حتى يئسا تماماً فتوقفا عن المحاولة، وبعد شهور من التوقف التام، بينما كانت تصلي في ليلة، شعرت برغبةٍ في القيء جعلتها تنهي صلاتها سريعاً، وتجري إلى الحمام، لكن الأمر قد سبقها على نحوٍ مقزز، فركعت على ركبتيها تفرغ ما في بطنها وقد احمر وجهها من الاختناق، وبرز عرقٌ في رقبتها، لما انتهت ألقت بنفسها على ظهرها، تستريح، وما أن التقطت أنفاسها حتى صعدت بهدوء إلى زوجها النائم ليوصلها إلى المستشفى..

في المستشفى قاموا بتحليل الدم الذي أنبأهم بالخبر السعيد الذي احتفلت به العائلتان في اليوم التالي.. بينما قضت (نادية) ليلتها تبكي غير مصدقة!..

وبعد سبعة أشهر وثلاثة أيام من ذلك اليوم ولدت ابنها البكر والوحيد (وائل محمد نزيه لطفي).. كان عمرها آنذاك حوالي أربعين عاماً، ولم تكن ولادتها سهلة.. حرص زوجها، الذي صار فخوراً سعيداً بابنه، على إرضائها وراحتها أكثر مما مضى، ولكن بعد الولادة بعشرة أشهر مات في حادثٍ سبب صدمةً رهيبة لـ (نادية)، وعظم خوفها من المستقبل الذي بدا لها كعنكبوتٍ صبور نسجت خيوطها في ركن الفرحة لتلتهم فيه أحبابها واحداً تلو الآخر..

صار ابنها سمعها وبصرها وكل حياتها، حرصت على الموازنة بين تدليله ودفعه إلى اكتساب صفات الرجال، فنشأ نشأةً طيبة، توحي بمستقبلٍ واعد، وكان عاشقًا للطعام رغم جسده النحيل..

قال لها مرة مازحًا: «أحيانًا أشعر أن الدوبامين يضرب سقف مخي، وأني مملوء بالحماس ثم يسيطر علي شعور أني أريد إنفاق كل ثروتي على الطعام، لا أدري لم يذهب الحماس في هذا الاتجاه، لكن هذا الشعور يسيطر علي بطريقة طريفة فأستسلم له.. لن أشتري اليوم بيتزا بل سأشتري محل البيتزا نفسه، ولن أشتري شطيرة من ماكدونالدز بل سأشتري ماكدونالدز نفسه.. لن أشتري شطيرة فول من مطعم (عم فؤاد وأبناؤه) بل سأشتري عم فؤاد وسأشتري أبناءه.. لن أشتري براوني ألا مود (كاندي كوتون مع أوريو بكعكة الفراولة ومن فضلك أضف صوص فراولة مع صوص شيكولاتة) بل سأشتري (باسكن روبنز) نفسه».

ضحكت فأكمل:

«ثم بمجرد تناول قطعتين من الطعام تمتلئ معدتي، فينزل الدوبامين بهدوء ثلاثة جرامات من زئبق كان قد ارتفع لما أخذته الحماسة في ترمومتر معلق في أحد أركان صيدلية عتيقة ضربتها لسعة موجة حارة في شتاء يناير وانتهت تلقائيًا».

حتى تعب يوماً تعباً شديداً بعد أكلة دسمة..

الألم الرهيب جعلها تطير به إلى المستشفى متجاوزةً كل إشارات المرور.

وفي مستشفى حي أول، حيث كانوا من أوائل من سكنوا ذلك الحي بعد عزله عن الفقراء، قاموا بعمل فحصٍ دقيق أدى إلى الكشف عن ورم واضح في القولون..

قرر الأطباء أنه لابد من إجراء عملية جراحية في أسرع وقت لإزالة ما يمكن إزالته من الورم، ثم يكون القرار بعد ذلك إن كان ينبغي الاستمرار في علاجٍ من نوع آخر..

بالفعل قاموا بإجراء العملية في أسرع وقت، ولكن بعدها قرروا أنه يحتاج إلى عمليةٍ أخرى في مستشفى بالقاهرة حيث يتواجد أفضل جراح لمثل هذه الجراحات الدقيقة، وهو لا يسافر أبدًا إلى الأقاليم ولكن يجري كل عملياته في نفس المستشفى الخاص الذي يملكه.

تحدد موعد العملية في القاهرة، وحينما جاء السفر بينما كانت مستعدة تنتظر سيارة الإسعاف كانت القرارات والتصريحات تتم على يد (حكيم).. فلما تأخرت السيارة اتصلت بالإسعاف لتكتشف ما حدث.. كادت تجن!..

ابنها الوحيد يحتاج إلى الخروج من هذا الحي في أسرع وقت!..

حاولت الاتصال بكل شخص تعرفه له وظيفة مرموقة في الدولة، أو يعرف شخصًا له وظيفة مرموقة، أو حتى يعرف شخصًا يعرف شخصًا.. إلخ.

ليس للواسطة قيمة إن لم تكن ستنفع في موقف كهذا!.. لكنها للأسف لم تنفع. كان الأمر بالفعل خارجًا عن السيطرة، الشرطة وقفت على الحياد، وسكان حي ثان ثائرون لظلم سنوات وسنوات من الطبقية والذلة!..

لم تجد سبيلًا إلا الإعلام.. كمحاولة أخيرة لا مفر منها فتحت التلفزيون لتجد برنامج (صـادق)، حاولت الاتصال بالأرقام المكتوبة على الشاشة، لكن الرد يكون دومًا (الهاتف مشغول).. حسنًا لابد أن تنفع الواسطة الآن!..

اتصلت بإحدى معارفها التي أوصلتها بدورها بفريق إعداد البرنامج وشرحت لهم الوضع الكارثي الذي تواجهه وحاجة ابنها للخروج من حي أول، تحمس فريق الإعداد لقصتها فأتاح لها مداخلة مع (صادق) على الهواء مباشرة..

كان (صادق) طوال الحلقة يسفه من أمر سكان حي ثان ويدعو الشرطة للتدخل ومحاكمة قادتهم على الضرر الذي تسببوا به، وكانت التفاعلات على وسائل التواصل الاجتماعي متباينة تباينًا حادًّا بين

القبول التام أو الرفض التام لما يقول، فجاءت مكالمة (نادية) له طوق نجاة يعضد رأيه..

أبدى تعاطفًا كبيرًا معها وأخذ يسألها أسئلة إيضاحية مدروسة عن مرض ابنها وحالته وكيف كان قبل المرض؟..

مما جعل المشاهدين يتأثرون بما يقال ويتعاطفون معها.. فلما بدا الأمر مبشرًا لها خرجت عما قاله لها فريق الإعداد من الالتزام بالإجابة عن الأسئلة فقط، فبدأت توجه كلامها إلى المسئولين وتطالب باحتواء الأزمة وحل المشكلة، ومعاقبة المتسبب لتعود الحياة كما كانت وهو ما لم يكن يريده (صادق) بالطبع، لكنه لم يستطع أن يقاطعها حتى لا يضعف موقفه بعد أن قوى موقفها.. لكن مراسلًا من فريق البرنامج قد استطاع الذهاب إلى طنطا في هذه الأثناء وإدخال أحد قادة حي ثان في مداخلة هي الأولى من نوعها منذ بدء الأزمة..

بدأ كلامه بأن المخطئ لابد أن يعاقب، وقال:

«لقد ظُلمنا كثيرًا وتحملنا، وآن أوان رد الاعتبار...»

فقاطعه (صادق) وأخذ يهاجمه وقال إن (فرح) سرقت ولابد للجميع أن يعترف بهذا و(جميل) لم يقتلها، وإنما ندد بما فعلته بطريقته.. «وهل المطلوب أن يقف متفرجًا ويعطيها ممتلكاته مجانًا؟!»

ثار الرجل وحدثت مشادة فقطعوا عنه الاتصال، مما أغضب (نادية) وسبّت (صادق) على الهواء متهمة إياه بإثارة المشكلات والإضرار بابنها، وأغلقت الاتصال بعنف مما ترك (صادق) في موقف لا يحسد عليه!..

أخذت (نادية) تلقي بما أمامها نحو صورة (صادق) على التلفاز بغضب شديد ثم انهارت باكية وهي تدعو:

«اللهم أنقذ وائل ابن بطني»..

بعد نصف ساعة جاءها اتصال من شخص لا تعرفه لكنه عرف نفسه وقال:

«أنا حكيم!»

شروط

اندهشت (نادية) حين عرّفها (حكيم) بنفسه، فهو آخر من توقعت اتصاله، وهو السبب في كل تلك الإجراءات القاسية التي عزلت (حي أول) عن (حي ثان) إجباريًّا هذه المرة.

لم تكن تعرف عنه أكثر مما رأته في وسائل الإعلام.. نحيلٌ، عيناه تنطقان، وكلامه يلهب حماس مستمعيه، قوي المنطق يعرج قليلًا كأن قد أصيب بشلل الأطفال صغيرًا، وفوق ذلك له يد مقطوعة تثير الشكوك.

حين كلمها بدا صوته متعاطفًا، وأبدى لها تفهمه لحالة ابنها، وأنه قد شعر من كلامها في البرنامج بتعاطفها المتبادل مع قضيتهم، لذلك عرض عليها أن يسمح لابنها بالانتقال لعمل العملية.

ذهلت (نادية)، هل تحلم؟ أخذت تشكره لكنه قاطعها بحدة:

- بشروط!

تفاجأت مرة أخرى:

- ما هي؟

– الأول: ستتم العملية هنا في (حي ثان) في مستشفياتنا التي تم إهمالها من قبل قومك.

– ولكن الطبيب يرفض ترك مستشفاه ولا يجري عمليات أبدًا خارج القاهرة.

– هذه ليست مشكلتي أنا، وأثق أنك تستطيعين التصرف.

– ولكن لماذا؟

– لأني لن أترككما تذهبان معًا إلى القاهرة لتتركانا هنا دون العمل على تنفيذ الشروط الأخرى.

– شروط أخرى؟!

– نعم، إننا نحتاج الكثير من الأموال لتطوير (حي ثان).. ضرائبكم لم تفدنا قط.. لطالما أنفقت على إنشاءات لا علاقة لها بنا، وأنت التي ستقنعين (هاشم أبو العزم) بإمدادنا بالأموال المطلوبة حتى نقوم بفتح البوابات لكم للدخول والخروج كما تشاؤون.

قالت بانفعال:

– لكن هذا الأمر ليس سهلًا كما تتصور، الناس هنا يكرهونكم بشدة وليس من السهل إقناعهم. إنك مجرد أحمق آخر تظن أنك صاحب قوة!.

قال بهدوء شديد وهو متوقع منها هذا الرد:

– أنا أعلم أنه ليس سهلًا، ولكن بم ستفيدهم أموالهم الطائلة إن لم يستطيعوا إنفاقها؟ وإن طال الوقت ستفقدون مخزونكم من الغذاء والدواء وتصبح نقود الدنيا بلا قيمة.. ونحن لا نريد أن يتأذى أحد، ولكن إن اضطررنا لذلك فستكون المسئولية مسئوليتكم بالكامل.

هنا سكتت (نادية) بل شعر بأنها اقتنعت، وقد أدهشه ذلك.. هل هناك امرأة تُغلّب المنطق على العاطفة؟ إنه يشبه أن يغلّب صاحب منصب ما المنطق على الغرور الوظيفي الذي يجعله يظن أنه دومًا على حق!.

لكنها اقتنعت وقد رأى (حكيم) أن تلك علامة جيدة فإنه طالما يفهم الأمر جيدًا يصير المنطق لعبته، أما إن لم يفهم أمرًا ما أو قضية وُكّل بها فلا يستطيع منطقة ذلك الأمر وتكوين دفاع قوي.. وقد تتساءل وما سبب عدم فهمه أمرًا ما جيدًا؟ لأن المعلومات ليست دائمًا متاحة، ولأنه لا يستطيع أن يعلم كل شيء!.

اجتماعٌ طارئ

في اليوم التالي لمكالمة (حكيم) اجتمع أثرياء (سوبريم) في بيت رجل الأعمال (هاشم أبو العزم) مؤسس الحي، بعدما حكت له (نادية) ما سمعته.

بدأ الاجتماع أول الليل، حضر الجميع بما فيهم (جميل) الذي كان ينظر له الحاضرون شذرًا، قال (هاشم) وهو مقطب الحاجبين والجبهة:

- علينا أن نتخذ قرارًا مهمًّا، بعضكم يعلم سبب الاجتماع وبعضكم لا يعلم، لذلك سأترك الفرصة لـ (نادية) لتحكي لكم.

نظروا باهتمام تجاهها ولم تكن معتادة على تلك النظرات وذلك الاهتمام، كادت للحظة أن تنسى كل شيء، ولو استسلمت لشعور الصدمة لفقدت وعيها نظرًا لأهمية الحدث، لكنها تذكرت ابنها وبمجرد أن ظهرت صورته في مخيلتها بدأت تتكلم بصلابة دون أن تهتم بنظر أحد إليها، قصت عليهم قصة ابنها الذي سمع أغلبهم قصته وحديثها في البرنامج التلفزيوني، ثم حكت مكالمة (حكيم) وطلباته.

قبل أن تنهي حديثها كانت صيحات الاحتجاج والاشمئزاز تتناطح من سكان الحي، وهو ما صدمها فاحمر وجهها خوفًا أن يرفضوا، فصاحت فيهم بأن عليهم الموافقة وإلا ضاع ابنها، لكنهم استمروا في الاستنكار..

– من يظن نفسه؟

قالت (نادية) بهدوء:

– هؤلاء جيراننا على أية حال.

فصاح أحدهم:

– هؤلاء ليسوا جيراننا.. الفرق بيننا وبينهم كما بين السماء والأرض.

كان كلامه دقيقًا في هذه النقطة.

– هل سنستلم لهذا اليربوع يتحكم فينا كيف يشاء؟!

أسكتهم (هاشم) جميعًا بصيحة غاضبة ترجرج فيها شدقاه الكبيران، وقال:

– هذا اليربوع يمتلك الآن (سوبريم) بين يديه، مؤننا في تناقص، وأعمالنا في خسارة.. كيف سنتابع أعمالنا في القاهرة والمحافظات الأخرى ونحن هنا؟ لا ينبغي أن نأخذ قرارًا متهورًا، فإن الوقت

ينفد منا بينما هو يملك كل الوقت.. من حسن الحظ أنه لا يزال لدينا بعض الخدم والعمال الأوفياء الذين رفضوا أن يغادروا الحي مع من غادر.. لكننا سنحتاج إلى بعض المتطوعين لبعض الأعمال مؤقتًا حتى تنتهي هذه المهزلة.

قال أحدهم:

- يمكنني الإشراف على أعمال البنية التحتية فلدي خبرة ممتازة في إدارتها في شركاتي.

قال آخر:

- وأنا يمكنني إدارة فريق لإصلاحات الكهرباء ومشكلاتها.

قال ثالث:

- وأنا يمكنني رئاسة لجنة للحفاظ على الأمن وتنظيم وجودهم في الشوارع بشكل دوري.

ثم نظر بعضهم إلى بعض بقلق وقالوا:

- ولكن لو كل منا صار مديرًا لفريق من سيكون في أعضاء الفريق؟!

أخذوا يتجادلون حتى قال (جميل):

- يطلب أموالنا كأنها حق أصيل ما هذه الجرأة والتبجح؟!

صاح فيه أحد الحضور:

- أنت سبب كل تلك المشكلات، اخرس تمامًا!

أسكتهم (هاشم) مرة أخرى فسكتوا لهيبته فقال:

- عليكم أن تفهموا أن هؤلاء الحثالة ينظرون إلينا باعتبارنا لصوصاً، فأي ثري بالنسبة لهم لص لا يستحق ما هو فيه من نعيم، حتى لو كان كريمًا معهم ينفق عليهم أكثر ثروته فسيظل عندهم لصًّا وسيستمرون في طلب المزيد..

ثم أردف مبتسمًا:

- فالناس عند (حكيم) هذا نوعان: فقراء يستحقون الثراء ولصوص لأنهم قد صاروا أثرياء بالفعل!.

ضحكوا لما فهموا المفارقة..

قالت إحدى السيدات:

- الذي يغيظ فعلًا أننا أثناء جلسات اليوجا حين نتمدد على ظهورنا في الأماكن المفتوحة لا نرى فوقنا إلا حي ثان بشكله القبيح وعشوائيته، بينما هم إذا تمددوا يرون أجمل المناظر لأنهم ينظرون تجاهنا.

تمتمت صديقاتها:

- فعلًا ما نراه لا يساعد أبدًا على التأمل، منازل بشعة وفوضى بصرية!.

قالت أخرى:

- وهل هؤلاء يمارسون التأمل واليوجا؟ آخرهم شد الحبل و(الاستغماية)!.

ضحكوا مرة أخرى..

الوحيدة التي لم تضحك هي (نادية).. رأت في تعاملهم مع الموقف تساهلًا وقلة تقدير لخطورة حالة ابنها، لذلك ظلت قلقة تحاول إقناعهم بضرورة الاستجابة لمطالب (حكيم).

نبههم (هاشم) إلى أهمية ترشيد استهلاكهم للسلع الغذائية، فلا داعي لإثارة الذعر في هذه المرحلة، ولا داعي لتخزين الأغذية، على كل شخص أن يشتري ما يحتاجه فقط، يومًا بيوم إن أمكن حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه.

أبدى الجميع تفهمًا كبيرًا لهذا التنبيه وتقبلوه بكل رقي، فأسوأ شيء في وقت الأزمات هو إثارة الذعر الاستهلاكي، وتبادلوا النكات عن حماقة سكان حي ثان الذين يظنون أنفسهم في ذكاء وثقافة نخبة المجتمع وصفوته المنتقاة أو في تحضرهم.

انتهى الاجتماع دون الوصول إلى اتفاق، سيقاومون الحصار حتى ييأس منهم (حكيم).

***

في اليوم التالي كانت إحدى سيدات حي أول تتبضع في سوق (سوبريم) التجاري مع صديقةٍ لها، فلمحت سيدة قمحية البشرة، على رأسها (تربون) ورديّ، تلبس بلوزة بيضاء عليها سترة ملونة بثلاثة ألوان مميزة لماركة عالمية معروفة، وبنطالًا نيليًّا فاتح اللون وبيديها عدة خواتم ماسية، فقالت لصاحبتها:

- أليست هذه أم (جميل)؟

قالت صاحبتها وهي تتأمل المرأة السبعينية:

- نعم.. انظري إلى عربتها الممتلئة.

غضبت الأولى وقالت:

- يا للوقاحة.. تكدس المشتريات بلا مبالاة!.

جذبت صاحبتها ليقتربا ببطء من أم (جميل) التي كانت تتلفت حولها تتأكد من أحدًا لا يراها، فلما رأتهما يقتربان توقفت فجأة عن وضع البضائع في عربتها.. وقفت المرأتان قريبًا منها ينظران إليها بحدة وهي متجنبة النظر إليهما في وضع غريب لمن يراهنّ من بعيد..

أدخلت أم (جميل) شفتيها داخل فمها كأنها تعضهما من الخجل ثم أخرجت من عربة التسوق علبة مناديل أرجعتها إلى مكانها.. ونظرت إليهما وهي تبتسم.. استمرا في النظر إليها بحدة.. زفرت

المرأة فمدت يدها وأخرجت علبة مناديل أخرى ووضعتها على الرف ثم قالت:

- وقعت في العربة بالخطإ.

قالت إحداهما:

- حقًا؟ وماذا عن كل هذه المخبوزات؟ هل وقعت بالخطأ أيضًا؟!

سكتت أم (جميل) قليلًا.. رفعت حاجبيها وهي تعدل التربون ثم قالت:

- المشكلة أنني وأنت من الممكن أن نلتزم.

- نعم لو التزم كل فرد سنظل بخير جميعًا هذا واجب علينا.

- الحق معك، ولكن هل تضمنين الآخرين؟ انظري حولك.. هل هذه السيدة تحتاج كل علب الجبن تلك؟ وانظري هناك هذا الرجل يضع عشر زجاجات على الأقل من مزيلات العرق.. من يحتاج إلى كل هذا؟ وكل علب التونة نفدت من على الرف.. أطعمة القطط والكلاب لم يتبق منها إلا القليل.

بدأت المرأتان تنظران حولهما وعلى الرفوف بدهشة.. كل ما تقوله تلك المرأة صحيح تمامًا.

أكملت:

- تريدان الالتزام لا بأس، لكنكما أول من سيعاني في المجاعة القادمة.

شعرت المرأتان بالقلق وهما تحدقان في عيني أم (جميل) المكتحلتين وعلى وجهها نظرة ناصح، وقد رفعت حاجبيها وضيقت بينهما.. فمدت أم (جميل) يدها لتلقي بعلبتي المناديل مرة أخرى إلى العربة وهي تقول:

- بعد إذنكما.

وانطلقت إلى قسم آخر من السوق.

نظرت المرأتان مرة أخرى حولها فلاحظتا حركة متزايدة بين رواد السوق.. كل شخص يسارع لوضع بضائع أكثر في عربته ويسرع في التحرك من قسم إلى آخر..

بعد دقائق انتقلت العدوى من شخصٍ لآخر، وعمت الفوضى المكان واصطف الناس عند المحاسبين، وكل شخص فرح بغنيمته التي استطاع تحصيلها قبل أن تنفد البضاعة..

وبحلول المساء وانتشار تلك الأخبار بين سكان حي أول انقض الناس على السوق بطريقة أدت في نهاية الأمر إلى التشابك بالأيدي

والقتال على علبة هنا وزجاجة هناك، مما أدى إلى إغلاق السوق على من فيه وعدم السماح بدخول عملاء جدد، وإخراج الموجودين من باب خلفي بمجرد محاسبتهم على ما اشتروه.

في اليوم التالي استيقظ الناس ليجدوا أن السوق قد سرق ليلًا وتهشمت واجهته الزجاجية بالكامل!.

فوضى في سوبريم

احتمى كل شخصٍ ببيته المؤمّن ضد السرقة، فقد عمت الفوضى شوارع (سوبريم).. بعد أن سُرق السوق نزل الناس الشوارع معهم صواعق كهربية ومضارب بيسبول كانوا يستخدمونها للزينة، قد جاء وقت استعمالها.. قاموا بعمل لجانٍ على الشوارع يوقفون السيارات بالقوة ويسلبون الراكبين ما يملكون..

وقف (جميل) مع جارين له بصاعقين كهربيين ومسدس صوت عند تقاطع شارعين، وأخذوا يوقفون السيارات ويفرحون كلما نالوا غنيمة من أحد الركاب..

لما انتشرت هذه اللجان وذاع خبرها احتمى الناس ببيوتهم وساد الذعر بينهم.. فلما قل العرض قل الطلب.. وجد الواقفون في اللجان أن وقوفهم بلا قيمة فبدؤوا يواجهون بعضهم البعض ويتعاركون على الغنائم..

ضرب رجلٌ (جميل) بعصا البيسبول على ساقه فوقع وهو يصرخ.. هاجم الرجل صاحب (جميل) الذي هرب منه.. استطاع (جميل) أن يصل إلى الصاعق الكهربي دون أن يشعر الرجل، وأخذ

يئن، وحينما عاد إليه الرجل مرةً أخرى ليسلبه ما معه باغته (جميل) فصعقه لتشل حركته في الحال ويسقط على الأرض..

تحامل (جميل) على ساقه فقام وأخـرج من جيبه سكينًا سويسريًّا.. قطع إصبع الرجل وحفر علامةً على وجهه كما رأى في فيلم أمريكي.. وعاد إلى بيته منتصرًا لكنه قرر أن يتوقف عن قطع الطريق لما شعر بخطورته تتزايد.. وكذلك فعل الكثيرون يومًا بعد يوم حتى لم يبق إلا لجنة أو اثنتين..

كان (هاشم أبو العزم) غاضبًا لعدم قدرته على السيطرة على الأمور..

والخدم الذين ظلوا معه بعد الأزمة يتبادلون فيما بينهم ما سمعوه يقول لزوجته.. إذ كان ينظر من نافذة الفيلا في غضب إلى الحركة في الشوارع وهو يقول لها:

- هذا عكس الذي طلبته من الناس بالضبط، أن لا ينساقوا وراء الذعر الاستهلاكي.. هل هؤلاء هم نخبة المجتمع؟ أي حسرة!.

عليه الآن أن يجمعهم مرةً أخرى ويضبط الأمور..

بعد جهودٍ حثيثة استطاع أن ينقذ ما استطاع إنقاذه لكنه عرف أن قبضة (حكيم) تزداد إحكامًا حول أعناقهم.

***

بشير

كانت ليلة طويلة على (حكيم).. وهو يحب الليل الطويل والسكون والهدوء والوحدة أحيانًا ليستريح من العبء الذي على كاهله، والزحام الذي يحيطه طوال اليوم.. فكر مازحًا أنه لعل أكثر مهنة تناسبه لو لم يكن محاميًا أن يكون حارسًا ليليًّا، ينام نهاره ويأنس بالسكون ليلًا.

والجوع رفيق الليل والوحدة.. يسلي نفسه بكوبٍ زجاجي يمتلئ بالشاي الساخن، وينظر إلى (بشير)، سمكته في الكأس الزجاجي الكبير.. ذكرٌ من نوع السمك المقاتل، ألوانه زاهية لامعة بها عدة درجات من اللون الأزرق، فترى السماوي والفيروزي والأزرق الداكن، كأنه بحرٌ في حد ذاته، يحرك جسده، يموّجه كالعلم الذي يرفرف في الهواء..

شجعه على تربيته أنه غير مكلف، لا يحتاج إلى أدوات كثيرة وحوض كبير لأنه يتنفس الهواء مباشرةً من سطح الماء، ولا يحتاج إلى مولد فقاعات، وغذاؤه حبةٌ واحدة في اليوم.. رفيقٌ مثالي لا يحتاج إلى كبير عناية.. مجرد كأس على سطح منضدة.

ينظر إلى (بشير) فيراه يتحرك حركاتٍ خاطفة حادة يمنةً ويسرة بدون ملل.. يهز رأسه وذيله يرتفع ليلتقط بعض الهواء برئتيه الصغيرتين، وينظر خارج الكأس في أمل.. يعيش السمك المقاتل عادةً ثلاث سنوات، وإن طال به العمر في بيئة جيدة معتنى به قد يعيش عشرة أعوام..

يفكر (حكيم) «ترى هل أعيش عشرة أعوام؟ أم أني أموت قبل (بشير) فيدفنني ويأخذ فيَّ العزاء مرتديًا بذلة أنيقة تلائم ألوانه الزاهية؟!»

أكثر ما يشغل بال (حكيم) الآن هو الخطوة التالية.. ماذا سيفعل بعد ذلك؟ ماذا سيكون رد فعل الآخرين بكل أطيافهم؟ هل سيستطيع أن يكمل ويقاوم؟ وإلى متى ستتركهم السلطة بدون تدخُّل؟ والآن تنتشر الشائعات أكثر عن ذراعه المقطوعة، وهو يعرف ذلك جيدًا.

اقترب من (بشير) فاقترب منه (بشير) يكاد يلاصق زجاج الكأس، ثم رفع رأسه يخرج فمه من الماء وأدار رأسه إلى اليسار لتلتقى عينه اليمنى بـ (حكيم)..

قال (بشير) بصوت يشبه الغرغرة:

- أخبرتك ألا تقطع ذراعك فلم تنصت!.

ابتسم (حكيم):

– شرٌ لا بد منه، كانت يدًا شريرة، لا أدري ما ذاك الحقد الذي كانت تخاطبني به كأنها قاضٍ يريد أن يحكم علي بالإعدام لأخطاءٍ ارتكبتها يومًا ما.. حتى وأنا أدفنها بعد عملية البتر، كان الوجه المرسوم عليها يحدجني بنظراتٍ مرعبة، ولولا أني حللتها بحمض الكبريتيك لما اطمأننت أبدًا إلى أنها قد تقوم من القبر مرة أخرى لتطاردني!.

– كتمتَ سرك سنين وهو لا بد مفضوح!

– أعلم ذلك يا صديقي.. وصدقني لو أنهم عجبوا يومًا من يد جعلها نيزكٌ غامض تتكلم فكيف سيفعلون إن رأوك؟!.

وأخذ يضحك ويعلو صوت ضحكاته، بينما نزل (بشير) إلى الماء وأخذ يجوب الكأس يمينًا ويسارًا.. سكت (حكيم) واقترب منه وسأله:

– ماذا أفعل الآن؟

اقترب (بشير) بدوره ورفع فمه ببطء خارج الكأس وأخذ يتكلم.

❋❋❋

وحيد

يعود (وحيد) متأخراً من عمله كمسؤول فراشة للعزاء والمناسبات، على تريسكل يضع عليه متعلقات الفراشة، ويركب معه أبناؤه الذين يساعدونه..

أما في تلك الليلة فقد كان وحيداً فعلًا.. لم يكن قد مر الكثير على ما حدث في (سوبريم) من نهبٍ وسرقة، وكان أهل حي ثان يسخرون مما حدث من ذوي الحكمة والثراء والمناصب..

ولم يكن (وحيد) يريد النوم، فآثر أن يجمع بعض الخردة ليبيعها صباحاً بدلاً من السهر في المنزل..

أوقف (التريسكل) عند أطراف حي ثان وترجل باحثًا في الأرض عما يصلح..

أخذه السير فلم يدر بنفسه إلا وقد صار قريباً من الحفرة التي خلفها حي أول وراءه.. والتي تجنبها الناس لما شاع عن سكن الجن لها.. بينما أحبها تجار المخدرات لانعزالها ومناسبتها لصفقاتهم المشبوهة..

وحين اقترب أكثر لاحظ مجموعةً من الناس بعيداً جداً عند منطقة صيدناوى سابقاً، التي صارت الآن تاريخاً بعد صعودها مع حي أول إلى السماء ثم إزالتها مع ما أزيل لعمل (سوبريم)..

بعد الملل الذي كان فيه شعر بشيءٍ من التشويق، أراد أن يعرف أكثر فتكون له قصة جديدة يحكيها، خشي أن يكونوا لصوصًا فتخفى وراء أعمدة حي أول الباقية على الجانب الآخر من شارع البحر، وأخذ يقترب ببطء..

كانوا بلطجية، عرفهم من هيئتهم ووجود شخص بينهم يدعى (إبراهيم القرشي)، تاجر مخدرات تسبقه سمعته ويعرفه (وحيد) جيدًا، الذي كان زبونًا دائمًا لديه، يلجأ إليه حين يحب المزاج، يتحدث إليهم رجلٌ ما ويسمعونه باهتمام، يشير بذراعه وهو يتحدث بحكمة وهدوء.

لم يتمكن من رؤية الرجل لأن وجهه كان للجهة الأخرى، حاول أن يدقق النظر، لاحظ أن ذراع بذلته محشور في جيبها فعلت وجهه الدهشة وهو يراقب حركاتهم، كأن (حكيم) يملي عليهم تعليماتٍ ما وهم يتلقونها جيدًا ويومئون برؤوسهم، ثم انطلقوا بسرعة بعيدًا للتنفيذ.

***

بعد ساعتين فزع (جميل) من نومه على صوت صياحٍ وصراخ.. نظر سريعًا من نافذته فرأى في الشوارع سُرَّاقًا ينهبون البيوت المجاورة، ويخرجون السكان من بيوتهم بملابس النوم.. رآهم يجرون امرأةً أربعينية من شعرها في الشارع، ويعتدون عليها بما يتفق ونظرته لهم..

همَّ بالنزول ليلقنهم درسًا ثم رأى أحدهم يتركها ويقترب من سور فيلا (جميل).. لما رأى رقم الفيلا سُرَّ بذلك ونادى أصحابه.. تركوا المرأة ملقاة وسط الشارع واقتربوا منه، فكلمهم بما أثار حماسهم، فأخذوا يحاولون كسر الباب معًا.. لم يستطيعوا فأخذوا ينظرون بغيظ إلى داخل البيت، ورفعوا رؤوسهم إلى الأعلى فالتقت أعينهم بعيني جميل الواقف خلف النافذة.. نظروا إليه في غيظٍ وتحدٍّ مما أثار في قلبه رجفةً قاومها بنظرة احتقار أبداها لهم..

لما يئسوا من الدخول انصرفوا إلى فيلا أخرى.. نهبوا ما نهبوا وارتعد سكان الحي، ثم اختفوا فجأة كما ظهروا فجأة.. فكانت ليلة!..

حينها قرر (هاشم أبو العزم) الاستسلام.. اتصل بحكيم على الفور ودعاه للقدوم إلى بيته في (سوبريم)..

رحلة قصيرة

أتت الدعوة إلى (حكيم) كما يتمناها تمامًا.. هنأه (بشير) من كأسه الصغير، واختار (حكيم) بذلة قيمة يحفظها للمرافعات الهامة.. ذهب إلى الحلاق.. والرجال يجتمعون من حوله يحتفلون بنصرهم.. ويحثونه على طلب القصاص .. وأثناء احتفالهم البسيط رأوا برنامج (الحقيقة الكاملة) على التلفاز، وقد ظهرت على الشاشة شريط أسود، وأخذ الإعلامي (صادق الحسين) ينعى ما حدث بالأمس من الهمج الرعاع الذين هاجموا (سوبريم) بكل وحشية، ويدعو للتدخل في إنهاء هذه المهزلة، كان ينفعل بغضبٍ مفتعل، وهو ينقل مقاطع مصورة للهجوم، صورها بعض السكان من نوافذهم وسط صرخات الهلع، إلا أن ذلك لم يعكر صفو الاحتفال، حتى إنهم لم يطفئوا التلفاز ولكن اكتفوا بكتم الصوت وأكملوا أحاديثهم.

وحين جاء الموعد ذهب إلى أنابيب الانتقال، ومع رجاله الذين طمأنهم أن يتركوه يصعد وحده..

كانت الأنابيب الجديدة موضوعة عند أطراف الحي حتى تسهل على أهل (سوبريم) أن ينتقلوا منها إلى الطريق السريع مباشرةً، لأنهم على الأغلب لا حاجة لهم في زيارة حي ثان، أما الأنابيب

القديمة التي استخدمت لنقل العاملين بالكومبوند فكانت في شارع الحلو، عند تقاطع شارع محب، وهي في الحقيقة أنبوبان فقط أحدهما للنزول والآخر للصعود، أشبه بفكرة التلفريك ولكن بشكل رأسي، معزول عما حوله للتغلب على البرودة والرياح عند الارتفاع.. تخرج من الأنبوب عربة على مسار تتوقف لدقائق، فيخرج منها الركاب النازلون ويركب الصاعدون إلى الحي الآخر على كراسٍ معدودة متصلة ببعضها كالأريكة، وموصولة من الخلف بالعربة نفسها، ثم يغلق الباب وينزل على كل كرسي إطارٌ يحمي الراكب من الوقوع كما في لعبة الملاهي «رولر كوستر»، ثم تصعد العربة إلى أعلى بسرعةٍ معتدلة، وحين تقترب من الدخول في جاذبية الحي الآخر تتحرك الكراسي بطريقة آلية عن طريق المقبض الذي يصلها بجدار العربة، لتوافق الجاذبية في مسارٍ على شكل نصف دائرة حتى تستقر على الجانب الآخر من الجاذبية حيث كان السقف منذ لحظات.

كانت رحلة حكيم قصيرة وسهلة، كانت السماء البينية بين الحيين صافيةً خالية من السحب والغيوم فاستبشر خيرًا.. خرج من الأنبوب ليجد سيارةً في انتظاره.. فيها سائقٌ ممن تبقوا في خدمة الأثرياء ولم يرحلوا.. أخذ السائق ينظر إليه في مرآة السيارة وينقل بصره بينه وبين الشارع طوال الطريق..

***

دخل إلى الفيلا ليقابل (أبو العزم).. رجل ذو هيبة يلتمع جبينه تحت أضواء المصابيح، وشدقاه مصنوعان من الزبد النيوزلندي، يجلس في صالون مذهب على جدرانه لوحات ضخمة.

صافحه (حكيم) فرد المصافحة باختزال.

قال (هاشم):

- أنت تعلم جيدًا أن كل هذه الأزمة ليست ذنبنا، ولا ينبغي علينا أبدًا أن نتحمل آثارها، كيف تكون محاميًا ولا تنصر المظلوم؟

رد (حكيم) مستنكرًا:

- مظلوم؟!

- نعم، مظلوم.. كل هذا الذي نحن فيه من جحيمٍ بسبب تلك السارقة التي ضبطت متلبسة.. نعم ضربتها صاحبة البيت، لكن كان يمكن أن تصل إليَّ ونسوي المسألة.. كنا سنعطي كل ذي حق حقه ونضحك وينتهي الأمر، ولكن ..

احمر وجهه حتى بدا ككرةٍ من اللهب وهو يكمل:

- ولكنها انتحرت، فانقلب كل شيء.

قال (حكيم) بابتسامة باردة:

- يا (هاشم) بك، صحيح أن (فرح) سقطت من السماء لكنها

ليست (لوسيفر)، فلا داعي لشيطنتها، إنها امرأة كادحة من ملايين المصريات أمثالها، رأت مستقبل أبنائها يضيع أمام عينيها، ولا ينبغي التعامل مع الضرب والإهانة باستهانةٍ كأننا عبيدٌ عند سيادتكم ترضوننا بعدها ببضع جنيهات.

قال (هاشم) وهو ينفخ بنفاد صبر:

- وماذا عن الفوضى التي تسببتم بها؟ أتظن أني لا أعلم من وراء كل ما حدث؟.

ادعى (حكيم) البراءة:

- ليس بيدي إحكام السيطرة على المتمردين طوال الوقت، لكن إن عقدنا اتفاقًا فإن هذا بالتأكيد سيخفف من غضب الناس.

كان (هاشم) يعلم جيدًا مكر (حكيم) وتلاعبه، لكنه لم يرغب في إطالة الوقت، وأراد أن يعرض عليه عرضًا أخيرًا على سبيل الترغيب، فابتسم بتصنُّعٍ وقال:

- ما رأيك أن تجاورنا في (سوبريم)؟ هناك فيلا شاغرة لها حديقة كبيرة وحمام سباحة، وستكون جاري.. لدي العديد من القضايا في شركاتي وأريد محاميًا حاذقًا مثلك.

لمعت عينا (حكيم) للحظة، وتخيل كيف تكون حياته لو قبل العرض، لكنه سكت، وحول دفة الحديث إلى شروط الاتفاق.

في النهاية اضطر (هاشم) للخضوع لشروطه ودفع ما يريد مقابل الحرية في الدخول والخروج وتعويض الإمدادات المسلوبة.. ليتنفس أهل (سوبريم) الصعداء..

في رحلة عودة (حكيم) إلى أنبوب الانتقال، أمر (هاشم) السائق أن يقود به في شوارع (سوبريم)، فقبل (حكيم) ذلك بابتسامة وأحب الفكرة بدافع الفضول، فأخذه السائق وأخذ يقول له وهو يطوف به:

– هنا منطقة الفلل، وهي أرقى مناطق (سوبريم).

قال (حكيم) بتعجب:

– هل في (سوبريم) مناطق أرقى من مناطق؟!

– طبعًا.. أما هذه المنطقة فهي منطقة الفلل المزدوجة يتقاسمها مالكان، كل منهما له نصف البناء ونصف الحديقة.

وبعد دقائق من القيادة قال:

– أما هذه المنطقة فهي أقل المناطق رقيًّا فهي لا تحتوى إلا على شقق فوق بعضها البعض.

قال (حكيم) ساخرًا:

– يا لهم من مساكين!.

وطلب من السائق أن يتوقف قليلًا، ونزل من السيارة ونظر إلى أعلى حيث حي ثان، فأخذ يتأمله وكأنه يراه لأول مرة ويلاحظ البون الشاسع بين الحيين.. ركب السيارة مرةً أخرى ليبدأ رحلة العودة.. وقبيل الوصول قرر السائق أن يتحدث فقال فجأة:

- لي صديق في حي ثان أريد أن أرسل إليه رسالة معك.

ابتسم (حكيم) الذي كان متوجسًا منه قبل أن ينطق ورحب قائلًا:

- بكل تأكيد.

ناوله السائق بسرعة ورقة مطوية، أخذها منه (حكيم) باهتمام ووضعها في جيب قميصه العلوي.. سكتا قليلًا ثم قال السائق كأنما أراد أن يبوح بما في صدره:

- إنها رسالة أطلب منه فيها أن يطمئن على أسرتي، فإني لم أرهم منذ حدث ما حدث.

قالها وضيق بين حاجبيه في ضيق، فرد (حكيم) مطمئنًا:

- قريبًا ستتمكن من لقياهم بنفسك، فقد توصلنا إلى اتفاق لا بأس به.

رد بارتياب:

- حقًا؟ على كل حال أوصل إليه الرسالة، فلا أحد يعرف ما يخبئه الغد.

- لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام.

وصل (حكيم) إلى الأنبوب فاستقله، وحين بدأت رحلته إلى حي ثان، رأى بعض الغيوم في منتصف الطريق أعاقت رؤيته لثوانٍ، انقبض فيها قلبه بعنف، ثم ما لبثت أن صفا الجو مرةً أخرى.

❊❊❊

وائل

قطةٌ بيضاء منتفخة الفراء سارت في دلالٍ في فيلا أنيقة.. صعدت سلمًا تتقافز على درجاته الرخامية، ثم انعطفت يمينًا.. عشر قفزات رشيقة ثم تدخل الغرفة عن اليمين لتجد فراشاً واسعًا تقفز عليه بخفة وتقبّل الفتى النائم في إعياء.. تقول له بصوتٍ حاد رفيع يليق بقطة مثلها:

«ألف سلامة!»..

ثم تمط جسدها جواره وتستلقي في سكينة، فقد كانت ظاهرة الحيوانات المتكلمة بعد النيزك مثيرةً للدهشة في البداية لكن لعدم انتشارها أو تكتم أصحاب الحيوانات عنها راحت طي النسيان عند أغلب الناس، فعجائب النيزك وطاقته الغريبة لا تنتهي.

رغم النجاح المبدئي للعمليات التي قام بها (وائل) إلا أن حالته ساءت يومًا بعد يوم، وصار يدخل غيبوبة فلا يفيق إلا بعد أيام ثم يدخل غيبوبةً أخرى، و(نادية) مشغولة به عن كل شيء، حتى أتى يوم تحسنت حالته بشكلٍ استثنائي.

حين أفاق يومَها لم تفارق البسمة محيّاه، رأى الدنيا بلونٍ آخر غريب.. يشم رائحة المرض في أنفه لكنها ليست الرائحة الكريهة التي اعتادها طيلة العامين الماضيين، بل كانت رائحةً مألوفة محببة إلى نفسه.. هل من الممكن أن يحب الإنسان مرضه؟..

لكنه لا يشعر بضعف، بل بنشاطٍ غريب، كأنه شفي، رغم أنه يعلم يقينًا أن المرض قد توغل في جسده هذه المرة وقد أعجبته مرافقته!.

نظر إلى الوجوه من حوله، فرأى وجه أمه التي لم تتركه لحظة، ووجه أبيه المتوفى يبتسم بحب وهو يرتدي بذلةً أنيقة كان يلبسها منذ عشرين سنة في الأوقات الهامة فقط..

كانت قطته متأهبةً تنظر إليه وتهز ذيلها دون توقف، وتنطق بكلمات تعبر عن سعادتها، ومُلئت أمه دهشةً وسعادة من قيامه لأول مرة بهذا البهاء.. ظنت أنه قد شفي أخيرًا، لكنه علم أنها إفاقة الوداع، سيليها نكسة صحيّة ثم قبض لروحه المعذبة، ناجى ربه:

«لك الحمد يا رب على هذه البشرى، وبها أصطبر إن شاء الله!».

وبعد ليلة واحدة قُبضت روحه إلى بارئها، وفقدت (نادية) شغفها بالدنيا.. لكنها قررت أن تترك هذا الحي إلى الأبد، لملمت كل شيء لها، وكل ذكرى لولدها، وأخذت قطتها وانتقلت لتسكن مع بعض أقربائها في المنصورة، ولم يسمع عنها أحدٌ شيئًا بعدها.

فنُّ الحرب

تزايد استعمال المناظير المقربة مرةً أخرى بعد اتساع الهوة بين الحيين، فحي أول يراقب حي ثان، والتجمعات حول الأنابيب وتحركات الجموع في الشوارع، والخطب الحماسية المحرضة، يراقبون في خوفٍ وترقب.

وحي ثان يراقب أيضًا ولكن في حقد وتشفٍّ..

«انظروا إلى كل تلك المسابح والحدائق.. هل ترى ذلك الرجل وساعته التي تساوي عشرات الآلاف؟ وتلك المرأة التي تضع عقدًا ماسيًّا بملايين ونحن فيما نحن فيه!».

في الحقيقة إن كان لي أن أنحاز إلى جانبٍ فهو بالتأكيد جانب حي ثان، فهم بالنسبة لـ (سوبريم)، لطالما كانوا مجرد أرقام، كأن حياتهم لا وزن لها، وأنا مثلهم.. ماذا تعرفون عني؟ ستقولون أنت الراوي العليم! وهذا حقيقي لا أنكر، ولكن من أنا حقًا؟ ما اسمي؟ كم عمري؟ ما دوري في القصة؟ لا تدرون بالطبع.. حسنًا سأتمرد هذه المرة.. لقد حكيت لكم كثيرًا عن الناس، هذه المرة سأحكي لكم عني وأخبركم بكل شيء.. أنا (***).. ما هذا؟!

اسمي الحقيقي هو (***).. تبًا لذلك الكاتب.. أرأيتم؟!

إنه يمنعني من الظهور.. يعامل اسمي كأنه كلمة مرور.. أنت أحمق يا (رامي).. لا تظن أنك اشتريتني لمجرد أني أروي قصتك.. أنت كاتب أقل من المتوسط.. ضعيف الأسلوب.. لغتك مريضة.. تلجأ إليّ كلما عجزت أو كسلت عن تقمص الشخصيات، فتبتعد وتصدرني للحديث.. تستخدمني كقمر اصطناعي يروي الأحداث من بعيد.. يا لك من فاشل!

حررني من قلمك يا أخي!.. يا لها من مضيعة للجهد والوقت!..

يتصاعد الحمض في معدتي، يؤلمني.. يقطع أحشائي، كالحمم البركانية، كماء النار، بل نارٌ حية مهما بدت سائلة، يكاد الحمض يلسع حلقي، آخذ قرص مضغ مهدئ للحمض، يحوي مادةً قلوية.. يذوب ببطء في فمي فينزل على الحمض ليهدئ هيجانه الرهيب، فينخفض الحمض شيئًا فشيئًا.. يغطيه القلوي ويتفاعل معه، يتحدان معًا فيتلاشيا معًا..حمضيّ + قلويّ = متعادل.. الـ ph ترتفع إلى 7 ربما أعلى قليلًا.. فأهدأ.. أحمد الله.. لقد صار الوضع أفضل الآن.

اعذروني يا أصدقائي القراء سأنهي هذا الفصل هنا.. أحتاج إلى قرصٍ مهدئ للأعصاب واستراحة قبل الفصل التالي.

***

كل شخص يراقب بمنظاره، الأمر الذي صار تسليةً رائعة لسكان الحي السفلي، يشاهدون أحيانًا في مجموعاتٍ فوق أسطح بعض البنايات، وفي مكانٍ منعزل بجوار حفرة حي أول الوعرة استلقى (وحيد) على ظهره، بجواره ورقة ضخمة، ممسكًا بيده اليمنى مرآةً يلاعب بها أشعة الشمس، وباليسرى منظاره، ومركزًا بصره من خلاله على مكانٍ بعينه، ساعة كاملة يتلاعب بانعكاس المرآة على زجاج بيت (جميل).

معذرةً يا أصدقاء مرةً أخرى على إنهائي الفصل السابق سريعًا، شعرت بشيءٍ من الاكتئاب والحاجة للعزلة، أنتم لا تدركون ما أعانيه من تهميش.. المهم ها هو (جميل) يخرج من شرفته، يبدو أنه قد لاحظ انعكاس المرآة على النافذة.. ينظر حوله، يبحث عن المصدر فلا يرى أحدًا.. إنه يدخل مرةً أخرى وهو يتفوه بعباراتٍ غير مفهومة لشخصٍ ما بداخل الغرفة.. هنا يحاول (وحيد) أن يلفت انتباهه مرة أخرى بمزيد من الانعكاسات، فيخرج متحفزًا هذه المرة، يبحث حوله في كل مكان فلا يرى مصدر الضوء، ثم يدرك أنه قد يكون ضوء الشمس والشمس لا تظهر أغلب اليوم في حي أول لوضعه المقلوب، يلتفت لأعلى ثم يدخل الغرفة مسرعًا، هل هو أحمق؟ آه إنه يخرج ثانية ومعه منظاره.. يجلس على كرسي في الشرفة وينظر من خلال المنظار إلى الحي الآخر، يبحث عن مصدر الانعكاس، فيراه بعيدًا عن التجمعات بجوار الحفرة العميقة مكان

حي أول القديم.. تلتقي المناظير، يفرح (وحيد) وبسرعة يجذب الورقة التي بجانبه.. يقرأ (جميل) المكتوب عليها بتركيز:

«يمكنني مساعدتك في التخلص من حكيم.. فكِّر.. وسأنتظرك غدًا في نفس الموعد».

وذات ليلة، بعد أيام من التواصل، أخرج (جميل) طائرة روبوت كان قد اشتراها من أحد أسفاره خارج البلاد، جعلها تمسك صندوقًا صغيرًا بإحكام ثم أرسلها بهدوءٍ إلى السماء، حتى انتقلت إلى الناحية الأخرى، وقبل أن تبتعد كثيرًا ويفقد التحكم بها، جعلها تلقي الصندوق في الحفرة الضخمة، ثم عادت إليه مرةً أخرى.

بجوار الحفرة كان (وحيد) ينتظر، فلما رأى الصندوق يسقط أسرع بحماسٍ في النزول إلى الحفرة ليلتقط الصندوق ويخرج منه سلسلةً ذهبية هي أثمن ما وجد منذ بدأ البحث في الخردة..

توجه على الفور إلى (إبراهيم القرشي) الذي كان خبيرًا بالأدوية والسموم، فطلب منه شيئًا خاصًّا لـ (حكيم)، ولم يخبره أنه لـ (حكيم).. أعطاه (إبراهيم) ما يريد على أن يعطيه النقود في اليوم التالي، لكن (وحيد) نسيه تمامًا فقد كان باله مشغولًا بما هو أهم.

يا له من فصلٍ مرهق.. حسنًا هذه هي النهاية الفعلية لهذا الفصل، ألقاكم في الفصل القادم!.

***

كومبوند حي ثان

في ليلةٍ بهيجة، على مقهى يقع على ترعة المرشحة، تعالت ضحكات وصيحات من حضر من سكان حي ثان ومعهم (حكيم) فرحًا بما وصلوا إليه من مكتسبات، قال أحدهم ضاحكًا:

– أعلمتم أن أبناء الغنية يشتكون من رؤية مناظرنا المقرفة وهم يلعبون اليوجا؟!.

فرد آخر ساخرًا:

– هاها.. ناس يشتكون المرارة وناس يشتكون السكَّر!.

ثم سكتوا قليلًا فرأى أحدهم كتابًا على طاولة (حكيم) فسأله:

– ماذا تقرأ يا زعيم؟.

ابتسم (حكيم) وهو يمسك الكتاب ليريهم الغلاف المكتوب عليه (فن الحرب – سون تزو).

تعجب الرجل:

– فن الحرب؟ هل سنحارب حي أول يا زعيم؟.

ضحك (حكيم) وقال:

- يا رفيقي، هذا الكتاب كتبه رجلٌ صيني منذ أكثر من 2500 عام، وكان حينها موجهًا بالفعل للحرب العسكرية، لكن لأن القواعد المذكورة عامة صار يطبق على أشياء أخرى غير الحرب، والحقيقة أن حياتنا كلها مجموعةً متصلة من المعارك التي لا تنتهي إلا بالموت، معارك مع النفس، ومعارك مع زملاء العمل، ومع الجيران، ومع الخصوم عمومًا، لذلك يستفيد الكثيرون من الكتاب في الإدارة بمفهومها العام وكلٌّ حسب عقله.

بدا عليهم عدم الفهم، فقام بفتح الكتاب وقرأ لهم بصوت مرتفع:

«إن أردت أن تكون قائدًا فتحمَّل مسئولية نتائج أعمالك وأعمال من تقودهم».

وعقَّب على الاقتباس:

- أرأيتم؟ كلام واضح ومريح.. على القائد أن يتحمل مسئولية نتائج أعماله وأعمال من يقودهم أيضًا، لأنهم تحت لوائه، لا أن يأخذ منهم الثمار وينسبها لنفسه ويتنصل من مسئوليته عن أخطائهم!.

قال أحدهم مازحًا:

– لا أدري كيف تطيق قراءة الكتب، لقد نجونا من الكتب بتخرجنا في المدارس، ما الذي يجبرني على التحديق في كلامٍ مكتوب وترجمته في عقلي إلى صورٍ وأصوات إذا كان يمكنني مشاهدة فيلم وبه معلومات أيضًا؟!.

– إنك لا تفهم لذة القراءة، فأجمل ما في الكتب أن تشعر بقراءتها أنك تسمع صوت المؤلف، فأنت لن تستطيع الحصول على تسجيلٍ صوتي أو مرئي لكاتب مثل (سون – تزو)، وقد مات منذ أكثر من ألفي عام، ولكنك من خلال كتاب له يمكنك أن تتخيله كصديق لك، خاصة عندما تتدخل المشاعر في كلامه فيحكي عن غضبه، وألمه، وفرحته، ودهشته، وآماله، وأحلامه التي قد تشاركه بعضها، فيزداد تعلقك به وأُنْسُك بصحبة كتابه، لذلك لن تدرك ما أعنيه لأنك لم تجربه.

سكتوا قليلًا ثم قال أحدهم:

– إن أولئك الأثرياء قد اتضح أن ليس لهم قيمة على الإطلاق، فنحن عندنا المهندسون والأطباء والعمال وعمال النظافة.

فعلق الآخر مؤكدًا على قوله بأنه رأى شيئًا غريباً بالأمس، وبدأ يحكي:

– حينما عدت من عملي تناولت الغداء، ونمت قليلًا ثم قمت مع

أذان المغرب، دخلت غرفة المعيشة لأشاهد التلفاز قليلًا، فوجدت ابني يحدق في هاتفه منمهكًا في لعبةٍ ما، وأنتم تعرفون الأطفال هذه الأيام لم يعودوا يلعبون في الشوارع ولا تدري ما يفعلون على هذه الأجهزة، فاقتربت منه لأفهم ما يشغله ليركز هكذا..

سألته: ما هذه اللعبة يا بني؟.

قال: لعبة إنشاءات اسمها ماين كرافت.

تعجبت أنه يهتم بالإنشاءات في عمر العاشرة، وفرحت لعله يصير مهندسًا يومًا ما، سألته:

- وكيف تعمل؟.

قال:

- تستخدم الأدوات المحيطة بك وتخزنها، ثم تبني بها ما تريد أيًّا كان حتى تكون عالمًا متكاملًا على الشكل الذي تحب.

كان كلامه مثيراً للاهتمام، وتزداد الإثارة كلما رأيت الحماس عليه وهو يخبرني عن اللعبة.. تراجعت إلى الأريكة وشغلت التلفاز، وأخذت أقلب القنوات وعقلي مشغولٌ بما قاله، ثم انتبهت إلى شيءٍ هام وهو أنه إذا كان كل لاعب يبني العالم الذي يريد أن يراه، فلماذا لا أشاهد هذا العالم الذي اخترعه ابني قليل الكلام، ربما ينبئني

بشيء لا أعرفه عنه، ربما لا أكون موجودًا في عالمه الخيالي؟!.

ناديته ليجلس بجواري وطلبت منه أن يريني ما بنى، فوجدت العجب.. لقد بنى مخططًا لحي ثان، ولكنه يختلف عن الواقع، محاط بسور من الأسلاك الشائكة، ومعلق عليه لوحة (كومبوند حي ثان)، وأراني ما يتخيله لو صار تجمعًا سكنيًّا مغلقًا مثل (سوبريم).. فقلت لنفسي «لو كان الأمر بهذه السهولة لأغلق كل حي فقير على نفسه الأبواب وقال أهله نحن تجمع سكني متقدم!».

ورغم أنه كان يقولها ساخرًا إلا أن (حكيم) قد التقط الفكرة ولمعت بمخه، وأخذ يقلبها يمينًا ويسارًا حتى تملكته.. قال:

- صحيح إنه ليس كل حي فقير يستطيع أن يفعلها، لكننا نستطيع إن حصلنا على الأموال اللازمة من جيراننا إياهم.

- لكن هذا يهدم الفكرة من الأساس، فإن احتجنا إلى مساعدة (سوبريم) فماذا أضفنا؟.

- بالعكس، نكون قد أضفنا الكثير.. ثم إننا نحتاج إلى هذه الأموال في البداية كدفعةٍ لنا، وربما لا نحتاج أموالهم مستقبلًا!.

***

في يوم الجمعة امتلأ مسجد السلام عن آخره، وهو مسجد كبير

من المساجد التي تقام فيها صلاة العيد، لاتساع الشوارع المحيطة واحتمالها لأعدادٍ غفيرة من المصلين، وكان الناس قد عرفوا أن (حكيم) يريد أن يعلن لهم شيئًا بعد الخطبة.

فلما انتهت الصلاة صعد (حكيم) المنبر وقال:

«إخواني وأخواتي، وآبائي وأبنائي.. استمعنا إلى خطبةٍ جميلة عن التعاون على البر والتقوى وأهمية العمل في الإسلام، وهذا ما أريد أن أكلمكم فيه اليوم.. إننا نخطو إلى مرحلةٍ جديدة وحاسمة في صراعنا مع جيراننا.. صحيح أننا الآن في هدنة، وأنهم يعطوننا حقنا من المال الذي يفرّق بعدالةٍ على الجميع، ولكن هذا لا يكفي.. نحتاج أن نجمع ما فرقنا، وأن نستخدم هذا المال فيما ينبغي أن يستخدم له!».

ثم قدم رأسه إلى الأمام وهو يميلها إلى اليمين قليلًا، وقد اتسعت عيناه وبدأ حاجباه يتحركان مع كل كلمة يقولها:

«لن نعيش عالةً على قومٍ لا يقدروننا، ولن ننتظر منهم حيلةً يقطعوا بها مستحقاتنا الشرعية.. لا بد لنا أن نتحرك.. لماذا لهم مجمعٌ سكني خاص مغلق؟ أتدرون لم؟ لأنهم لا يريدون أن يتعاملوا مع الحثالة أمثالنا.. لأن مناظرنا تضايقهم، وألفاظنا تصيبهم بالاشمئزاز.. لا يحبون ما نلبس ولا ما نأكل ولا ما ندرس في مدارسنا المتواضعة..

لا يطيقون مستشفياتنا الفقيرة ولا طرقنا المُتَّسخة.. ولا أرصفتنا البائسة.. فلنثبت لهم أنهم على خطأ!.. فلنجعل لنا (سوبريم) كما لهم (سوبريم)، فلننظف شوارعنا ولنطور مستشفياتنا.. وسنرى من منا أحوج إلى الآخر!.. أريد منكم متطوعين في كل المجالات، أريد أن أعرف كم لدينا من معلمين وحرفيين وأصحاب مزارع دواجن، وكم لدينا من أطباء وصيادلة ومهندسين، وكل صاحب حرفة أو موهبة حان الأوان لبروزه والاستفادة من موهبته!»..

هلل المجتمعون ثم قام كل شيخ حارة بإدارة أهل منطقته الذين كانوا متحمسين، وخاصة الشباب، الذين شعروا بالتفاؤل لأول مرة.. تفانوا بحب في تلوين الأرصفة وتنظيف الشوارع وجمع القمامة.. بل قام بعضهم بتصميم وسائل لإعادة تدوير المخلفات، حيث قاموا بتصنيف القمامة إلى ورقياتٍ وبلاستيك وغير ذلك، ثم بدؤوا في إرسالها إلى شركات إعادة التدوير بمقابل مادي يُضاف إلى ميزانية حي ثان..

لقد رضي أهل الحي بطيب نفس أن يمتنعوا عن تقاضي المكافأة التي كانت توزع من أموال (سوبريم)، في مقابل أن يروا التطور المذهل الذي حدث في الحي.. كان ذلك الامتناع عن المكافأة في البداية اختياريًا، ثم صار إجباريًا بعد ذلك لما اتسعت النفقات.. فقد تم تجهيز المستشفيات بأحدث الأسرَّة والأجهزة الغالية.. واجتمع

أخصائيو الكهرباء في كل منطقة ليصلحوا أي أعطالٍ عامة في الشوارع وأعمدتها، وتأمين الأسلاك المقطوعة حتى لا تؤذي أحدًا.

ثم بدأت سيدات كل منطقة بزراعة أسطح المنازل، فعلى الرغم من سخرية الجميع من سيدات (سوبريم) اللاتي لا يستمتعن باليوجا، إلا أن سيدات حي ثان شعرن بالغيرة، وقلن:

«نحن أجمل وأنظف وأرقى منهن».

صحيح أنهن كن يزرعن نباتاتٍ خضراء مفيدة للطعام إلا أن ذلك لم يمنع حرصهن على زرع بعض الورود هنا وهناك، مما أضفى لمسةً جمالية لا يراها مع الأسف إلا سكان (سوبريم)، فهم فقط من يرى الصورة الكاملة لحي ثان بعد التطوير، يرون حي ثانٍ ويتحسرون على ما آل إليه (سوبريم) من فوضى، والقمامة تملأ الشوارع لقلة العمالة، وأنفتهم عن فعل التنظيف الذي لم يعتادوا عليه، اللهم إلا قلة قليلة من أمثال (نادية)، الذين لم يجدوا غضاضةً في تنظيف منازلهم والشوارع المطلة عليها، ربما لأنهم عاشوا فترةً من حياتهم من دون خدم ولا حشم، قبل أن يمنَّ الله عليهم بالثراء، ثم يأتي بعد ذلك بعض الخدم والعمال المتبقين في حي أول ليجمعوا تلك القمامة ويلقوها من أطراف الحي، لتقع في مدار الشمس بحي ثان، وهؤلاء هم أنظف القوم!.

وفي غضون أيام بدأ في عمل الأسوار المحيطة بحي ثان، فكل كومبوند لابد له من سورٍ يمنعه ويمنع عنه، بل المدن الكبرى قديمًا كانت تحاط بأسوار تحميها، وأحيانًا دولة كاملة مثل سور الصين العظيم.. قاموا بعمل سورٍ من الأسلاك الشائكة والخوازيق، فكروا في كهربتها، ثم تراجعوا خوفًا من أن يتأذى الأطفال دون قصد.. وبعدما أتموا بناء السور تقريبًا اكتشفوا أنها كانت فكرة غبية للغاية، وأنهم لا يحتاجون إلى سور، قالوا:

«إن سكان (سوبريم) محبوسون بالفعل والمفتاح معنا، فممن سيحمينا السور؟!».

تركوا إتمام السور، ثم مع الوقت بدأ الناس يخلعون منه أسلاكًا ليمروا من خلالها على سبيل الاختصار، حتى صار مفرغًا من هنا وهناك.

سألهم (حكيم):

- ماذا تقترحون اسمًا لمجمعنا السكني؟

قال أحدهم:

- البساطة هي الأفضل: كومبوند حي ثان.

رد آخر:

- هذا استسهال وليس بساطة.. اسم ساذج للغاية، دعنا نسميه: كومبوند حي النخيل بالإسكندرية.

- وهذا هو الإبداع في رأيك؟ ما علاقتنا بالإسكندرية أصلًا؟!

- أحبها وأحب البحر، دعنا نتحصل على شيء من رائحته!.

- اقترحوا اسمًا آخر، لا تضحكوا علينا الأعداء!.. ألم تروا كيف سموا حي أول (سوبريم) اسمًا يبرز فوقيتهم ويميزهم رغم أنوفنا؟!.

- أي فوقية وتميز؟ إنه اسم بيتزا!.

- صحيح، حتى أنه ليس معه بطاطس أو مياه غازية!.

ضحك البعض ثم سكتوا قليلًا قبل أن يقول أحدهم:

- ما رأيكم أن نسميه: كومبوند فرح؟

قال آخر بانزعاج:

- لا لا من فضلكم، صحيح أني متعاطف معها، لكنها - لا تؤاخذوني - سارقة أولًا وأخيرًا، ولن أقبل أن أعيش في مكان يعيرني الناس به، نحن وقفنا ضد الظلم وليس مع الخطإ!.

تدخل (حكيم) حتى لا يحدث شقاق بين الرجال وقال:

- فلنسمه: كومبوند الأمل.

وافق الرجال على الاسم وتقبلوه على فأله الطيب.

- ونريد عمل إعلانٍ لنا ينافس إعلانهم عن (سوبريم).

- لقد كان إعلانًا سخيفًا ومتعاليًا، ابتعد عن الغوغاء، واجعل الفقراء تحت قدميك، ثم تظهر فتاة مدللة تقول:

«لا يوجد حيوانات وسطنا، ابتعدوا عن هؤلاء البهائم».

ويقول آخر:

«عش معنا في كوكبٍ آخر لتكون فوق رؤوس الشراذم، رغم أنهم مقلوبون فنحن أيضًا فوق رؤوسهم».

غريب هذا الوضع المقلوب لا أحد يفهم من فوق رأس الآخر!

- وكذلك الجزء المتعلق بالأطفال غاية في الوقاحة:

«سيجد أبناؤكم مكانًا نظيفًا للعب بعيدًا عن الهمج وأولاد الـ(***)، وإذا أردت التمشية في أي مكان فلن يخرج عليك يرابيع ليأخذوا كل ما معك من نقود». كأننا نحن اليرابيع وهم أكبر اللصوص!

- صحيح، وملاعب الجولف الضخمة، وبدلًا من أن يزرعوها بأشجار مثمرة يملؤونها بالحشائش، ما أتفههم! ثم يقولون في الإعلان:

«دعك من الفلل التي بعشرين مليونًا، فأي أحد يستطيع شراءها، أما هنا فستجد الفلل التي لا يقل سعرها عن مائة مليون حتى لا يقدر على شرائها أي متسول!».

- والله سفه!.

- حتى الثقافة التي لا فرق فيها بين غني وفقير، يقولون:

«ستجدون في المكتبة كتبًا لا يستطيع قراءتها ولا يفهمها الفقراء، انضم إلينا لتحصل على شبكة علاقاتٍ مع أنظف أهل مصر، وتستمتع بالذوق بعيدًا عن المناظر البشعة خارج (سوبريم)!».

قال (حكيم):

- هل تصدقون أني لم أشاهد هذا الإعلان من قبل؟! هل هو مع أحدكم على هاتفه؟.

قال رجل:

- على يوتيوب يا رئيس، انظر.

وقام بتشغيل الإعلان الذي بدأ بموسيقى تصويرية ثم ظهر (هاشم أبو العزم) ليقول بصوت قوي:

«لماذا تسكن على الأرض إن كان يمكنك أن تسكن في السماء؟».

ثم تتحرك الكاميرا لتصور حي ثان، وتصعد ببطء في السماء

حتى تصل إلى (سوبريم) ويظهر الفرق الكبير بين الحيين، وبعدها يظهر رجل آخر من سكان (سوبريم) يجلس داخل حدود سور فيلته على كرسي أمام حمام السباحة وهو يقرأ جريدة، ثم ينظر إلى الكاميرا ويقول:

«في مجتمعٍ مغلق».

ثم تصور الكاميرا مجموعةً من الفتيات يجلسن في مطعم راقٍ يتبادلن الحديث ثم تلتفت إحداهن إلى الكاميرا وتقول:

«ستجد هنا فقط من يشبهك».

اللقطة التالية تُظهر شابًا في مكتبةٍ منهمكًا في قراءة كتاب، ثم يلتفت إلى الكاميرا التي تقترب منه ويقول بصوت منخفض:

«ستجد في المكتبة أحدث الكتب الأكثر مبيعًا في كل المجالات، كتبًا لن تجدها في أي مكان آخر».

ثم يظهر رجلٌ في ملعب جولف ضخم وحوله بعض الأصدقاء، يضرب الكرة بعيدًا ثم تقترب منه الكاميرا فيقول مبتسمًا:

«قوِّ علاقاتك بالمحترفين وأقيموا المشاريع معًا».

ثم تظهر الكاميرا في مشهدٍ آخر فتاتين تمشيان في الشارع الخالي وتقول إحداهما في سعادة:

«كل الأماكن هنا أمان».

ثم يظهر أب وأم مع طفلهما أمام حديقة ألعاب والأب يقول:

«سيجد طفلك مكانًا نظيفًا وممتعًا للعب مع أصحابه، دون أن تقلق حول من يلعب معه».

ثم امرأة عجوز ابيضَّ شعرها، ترتدي ملابس أنيقة، جالسة أما التلفاز داخل منزلها تقول:

«لن تحتاج أن تعود إلى كوكب الأرض مرةً أخرى، فهنا كل شيء تحتاجه من متطلبات المنزل البسيطة إلى المدارس والجامعة والنادي».

ثم يظهر (هاشم) مرةً أخرى في نهاية الإعلان وهو جالس في حديقة فيلته قائلًا بثقة:

«دعك من الفلل الرخيصة، فأي شخص يمكنه دفع عشرين مليونًا في فيلا، أما هنا فأقل فيلا بمائة وخمسين مليونًا، حتى تجاوز من يشبهك، وعلى كل حالٍ فقد وفرنا وحداتٍ سكنية لمتوسطي الدخل تبدأ من أربعين مليونًا فقط!».

وبعدها تبتعد الكاميرا إلى الوراء تدريجيًا حتى يظهر كومبوند (سوبريم) كاملًا داخل الكادر، محاطًا بالسماء في خلفية الصورة، وتظهر على الشاشة كلمات: (كنساميًا .. اسكن سوبريم).

قال الرجل بعد انتهاء الإعلان:

- أرأيت؟!.

قال (حكيم) بحزم:

- لا بد أن نقوم بعمل إعلانٍ مضاد.

- هذا يتطلب الكثير من الأموال لشركة الدعاية التي ستكتب الفكرة وتصورها وتنفذها، هل نستطيع تغطية هذه التكاليف؟.

رد (حكيم):

- لا نحتاج إلى أي شركة، سنكتب ونصور وننفذ بأنفسنا، اكتب عندك:

«هل تعلم أنك كلما ارتفعت كلما زادت برودة الجو؟ اسكن على الأرض ولا تكن باردًا!».

- هاها.. قصف جبهة يا زعيم.. أكمل!.

«هل تعلم أن المرفهين قذرون بطبيعتهم، لأنهم يظنون أن من نبلهم أنهم يترفعون عن التنظيف بأنفسهم؟ بينما أهل الأصالة والنبل الذين قاسوا هذه الحياة هم أنظف الناس لأنهم لا يستنكفون عن تنظيف أنفسهم وبيئتهم؟ اسكن مع أهل النظافة».

- صدقت، أكمل.

«هل تعلم أن المتكبرين هم أهل النار؟ اسكن مع أهل الجنة».

- لا أظن أن الشيخ سيوافق على هذا السطر يا زعيم، يقول إنه لا يمكن الجزم بأننا أهل جنة وهم أهل نار.

- دعك من الشيخ، واكتب:

«هل تعلم أن بعض الناس يظنوننا تحت أقدامهم، بينما الحقيقة أننا فوق رؤوسهم؟ اسكن فوق رؤوس المتكبرين.. لدينا أفضل إطلالة سماوية في مصر والعالم.. ملحوظة: لدينا ملعب (بادل)».

- رائع يا زعيم، سنبدأ في التنفيذ على الفور.

كان المال الآتي من (سوبريم) مصدرًا هامًا للنفقات التي يحتاجونها.. بل هو أهم المصادر وأكبرها!.

وصحيح أن (حكيم) كان سعيدًا بما يناله من تقدير، وأن كثيرًا مما يفعله يفعله ليحبه الناس ويصير رئيسًا عليهم طوال الوقت، لكن هذا قد دفعه للإحسان إليهم والمكر لهم.

في البداية وافق سكان (سوبريم)، ولكن مع الوقت وتحسن أحوال حي ثان عادوا إلى التذمر والغضب.. كان الاتفاق صارمًا وقرار (سوبريم) بدفع الجباية ساريًا لا يمكن التراجع فيه نظرًا للتبعات المترتبة على العصيان، لكن (جميل) الذي كان قد نال

الكثير من التوبيخ خلال الفترة الماضية كان مغتاظًا بما فيه الكفاية ليتحدى الجميع، فقام بإبدال النقود المسلمة إلى حكيم إلى ورق أبيض في اللحظات الأخيرة دون علم الغالبية، مما دفع (حكيم) لفرض عقوباتٍ شديدة وظلم ومنع العلاج عن حالات الطوارئ، حتى تدخَّل البعض وتم حل المشكلة، لكن لم تهدأ النفوس.. خاصة مع الإشاعة التي انتشرت عن أن (حكيم) قد قطع ذراعه عن عمد ولم تقطع في حادثٍ كما كان يدّعي، لأنه من سكان شارع (حسان) الذين تنطق أيديهم رغمًا عنهم بفعل طاقة النيزك الغامضة!..

مما دفع الناس في الحيين للتساؤل أي رجل خبيث هذا الذي يقطع يده خوفًا من أن تبوح بحقيقة أمره؟! هل كذب على الجميع عشرات المرات مطمئنًا أن يده لن تكشفه؟.

وهو ما أدى بالطبع إلى شكوكٍ وهمهمات في السر مما أدى إلى ضعف شعبيته وسط قومه، لكن أحدًا لم يجرؤ على مواجهته بالحقيقة التي اكتشفوها كما يعتقدون!.

يعيش (حكيم) في شقةٍ متواضعة في قحافة، لم يتزوج رغم تجاوزه الأربعين، فهو يرى أن الزواج سيؤخره عن طموحه، ربما لكثرة ما يعايش من قضايا محكمة الأسرة وربما لتجربة شخصية.

سأله أحدهم مرة عن سبب تأخره في الزواج رغم قدرته المادية،

وأنه ليس زير نساء مثلًا ليفضل الحرية، فضحك (حكيم) من ذكر وصف (زير نساء) الذي كانت تطلقه العرب على من يكثر من زيارة النساء وقال:

- الزواج للمغفلين، مسئولية بلا مقابل يستحق، فهو كما يسميه الكثيرون (شر لا بد منه) لكنه ليس بهذه الأهمية بالنسبة لي.. طموحي يشغلني عنه.

- لكنك يا صديقي يومًا ما ستكبر، أطال الله عمرك، وحينها ستندم على تأخير زواجك وستخشى أن تموت وحيدًا، فراجع نفسك!.

زالت الابتسامة من على وجهه والتفت إليه قائلًا بجدية:

- ليس لمثلي أن يعيش طويلًا، أحيانًا أقول لنفسي إن الجندي قد يصبح لواءً، والكاهن قد يصبح البابا، أما أنا فكنت محاميًا والآن أنا حكيم، ثم أرد على نفسي (وهل تحسب نفسك بيكاسو؟!)، لكني أرجع وأقول: ولم لا؟!.

***

مؤامرة سرِّية

لم يهدأ (جميل) بعدما حدث، فرغم اللوم والسباب الذي تعرض له مرةً بعد مرة، إلا أن غيظه ازداد.. فاستعجل (وحيد) الذي كان قد تلكأ في تنفيذ الخطة بعدما أعطاه (حكيم) رسالة صديقه السائق الذي اختار البقاء في (سوبريم)، كأنه شعر أنه مدين له بشيءٍ ما، حتى أنه تخلص من الدواء القاتل الذي أعطاه إياه (القرشي)، إلا أن ذاك الشعور تلاشى مع الوقت وصار مكانه شعورٌ بالندم.. خاصة مع عدم نسيانه لما أفسده عليه (حكيم)، وما قطعه عنه من أكل عيشه، وهل ينسى كل ذلك مقابل ورقة وضعها في جيبه ساعات ثم أوصلها إليه؟!.

لكن (جميل) قد غير الخطة التي اتفقا عليها، وأرسل إليه صندوقًا آخر، فتحه (وحيد) ليجد به مسدسًا مزودًا بكاتم صوت، مما أدهشه حتى قرأ الرسالة التي معه، وعرف منها الخطة الجديدة، فزاد حماسه.

***

زار (وحيد) (حكيم) في المقهى، وتحيَّن وقت جلوس (حكيم)

وحده واتجه إليه، كان (حكيم) قد تعرف إليه لما أوصل إليه رسالة صديقه السائق، كما عرف عنه أنه صاحب فراشة وبائع خردة، لكن (وحيد) عرفه بنفسه كأنه لم يره من قبل، وقال إنه قد وجد شيئًا مهمًا يريد منه أن يراه.

- ماذا تعني؟ أي شيء هذا؟

قال مبديًا الحرص على مصلحته:

- تعلم أني أفضل منقبٍ عن الخردة في طنطا، حتى أنه كان يسمح لي بالانتقال إلى (سوبريم) لنقل متعلقاتهم القديمة، فننقل بعضها، خاصة الثمين وما يسهل كسره ويصغر حجمه عبر الأنابيب، والباقي نكتفي برميه من فوق عند الحافة ليسقط قرب الحفرة التي خلفها حي أول، ثم ننزل فنلتقط منها ما نريد فيما بعد.. هذا بالطبع قبل أن نقوم بالثورة ونوقف التعامل معهم.

قال الجملة الأخيرة وهو يكتم غيظه وينظر إلى الجهة الأخرى.. سكت وهلة ثم التفت إليه مرة أخرى ليكمل:

- ومن بين الأماكن التي أنقب فيها بين حين وآخر ..

تلفت حوله ثم اقترب من (حكيم) وأضاف هامسًا:

- الحفرة الكبيرة.

بدا الاهتمام على وجه (حكيم).

- كما قلت فإننا كنا نلقي فيها بعض الروبابيكيا سابقًا، أما الآن فلا يهتم أحد من باعة الخردة بها بعد توقف أعمالنا في أول، ولا يجرؤ الكثير من الناس على النزول هناك في العمق، لكن مع الوقت صرت أعرف طريقي فيها ثانيًا، وفي أوقاتٍ قليلة أجد فيها ما يفيدني مما وقع أثناء اقتلاع حي أول بالنيزك.. ومنذ يومين بينما أبحث هناك وجدت مكتبة هائلة، كدت أتركها، فنقلها صعب ومتعب، بالإضافة لأنه غير مجزٍ فمن يهتم بالكتب؟!. لكني تذكرتك وتذكرت حبك للكتب، أو ربما تضعها في مكتبة الحي التي ننافس بها مكتبة (سوبريم).. ما رأيك أن تأتي وتراها معي؟ لن تخسر شيئًا، وتكون لي الحلاوة!.

رد (حكيم) وهو يضع نظارة القراءة على الطاولة:

- لم لا؟! سآتي معك أنا والشباب.

رد (وحيد) بسرعة:

- لا.. أي شباب؟! أنت وحدك وإلا سيطمع الكثيرون في كنوزي التي تنتظرني هناك.

زفر (حكيم) في لا مبالاة وقال:

- لا بأس هيا بنا.

– ليس الآن، عندي عمل الآن، سأنتظرك الساعة الحادية عشرة عند الحفرة ناحية مكان مستشفى الجامعة قديمًا.

كانت الخطة التي اتفق عليها مع (جميل) أن يستدرج (حكيم) ويقتله، ثم يعيد جثته إلى شقته حتى لا يعلم أحد من قتله، وبمقتله سينتهي أمر (كومبوند الأمل)، وتعود الأمور لنصابها وتستطيع الشرطة أن تتدخل!.

***

في الموعد المحدد وصل (حكيم) ليجد (وحيد) بجوار عربته منتظرًا، لم يكن (وحيد) كثير الكلام، بمجرد أن اقترب (حكيم) أخرج المسدس، فاتسعت عينا (حكيم)، قال له:

– تقتلني بعدما فعلته معك؟!

بصق على الأرض وقال:

– بل أقتلك بعدما فعلته معنا.. لقد دمرتنا وقطعت أرزاقنا، ولم تهتم إلا بمطامعك ومنصب ترمي إليه.. حتى المعونة التي كانت تأتينا عن طريقك من (سوبريم) قطعتها عنا جميعًا وجعلتها لنفسك.. ألم تترك المحاماة منذ بدأت تلك الفوضى؟ فكيف تنفق على نفسك إذن؟ أسرارك انكشفت يا كذاب!.

قال وهو لا يزال غير مصدق مادًّا ذراعيه أمامه محاولًا أن يثنيه عما يفعل:

- أنت مخطئ، أنت لا تعرف عني شيئًا.

وهم (حكيم) بالهرب لكن (وحيد) صوب عليه وقتله بدون تردد.. اقترب منه وبصق على جثته في غل.. ثم جذب قطعة قماش من عربته فأزال البصقة وهو لا يدري لماذا يفعل ذلك، هل سيبحثون عن القاتل بتتبع الحمض النووي؟!.

أخذ مفاتيحه من جيبه ثم رفع الجثة إلى عربته مخبأةً وسط الخردة في شوالٍ أسود، ومضى بها إلى بيت (حكيم) بعد أن تأكد من هدوء المنطقة وألا أحد يراقبه.. أخرج المفتاح وفتح باب الشقة، وضعها على السرير فرآه (بشير) الذي كان يقبع في كأسه في ركنٍ بجوار السرير، فلما انتبه (بشير) لما يحدث لم يستطع أن يسكت فصاح بصوته الغريب:

- أيها المجرم، ماذا فعلت؟!.

كان (وحيد) يهم بالمغادرة لما سمع الصوت، فأخذ يلتفت بفزع يمينًا ويسارًا لا يعرف المصدر، حتى تكلم مرة أخرى بصوت الغرغرة المميز:

- أنا هنا يا أحمق، لماذا قتلت الرجل الطيب، لا بد أنك من محبي

الظهيرة الخونة!.

اتسعت حدقتاه لما رأى السمكة تتكلم، واقترب منها ببطء، مد يده ليمسكها فعضعته، فسبّها وذهب إلى المطبخ وعاد، والسمكة تنظر تجاهه صامتة.. اقترب من الكأس يحدق إليها وتحدق إليه، ثم نظر إلى جثمان (حكيم) الملقى بلا حراك، وقال وهو يضحك:

- متى تنتهي أسرارك يا رجل؟!

ثم أخرج السمكة بمصفاة ووضعها على الطاولة ورفع سكينًا بيده فقالت له وهي تنظر إلى السكين في الهواء وهو ينزل عليها:

- خائن!.

***

طبقٌ بارد

بموت (حكيم) عمت الفوضى، واستغلت الشرطة الفرصة للتدخل والسيطرة على المدينة التي تخلت عنها رغمًا عنها.

لكن سكان (كومبوند الأمل) ثاروا مرةً أخرى ولم يُمَكّنوا الشرطة منهم..

وانطلق الكثيرون إلى (سوبريم) عبر الأنابيب.. رأى أهل (سوبريم) ما يحدث فانتفضت قلوبهم رعبًا.. علموا أنهم لن يستطيعوا منعهم فلاذوا ببيوتهم بين خائفٍ وغاضب ومضطر.. ووصل أول وفدٍ من (حي ثان) فيه الكثير من الملثمين الذين لا ينوون خيراً، ثم وفد ثان وثالث ورابع بلا توقف.. يثيرون الرعب في شوارع (سوبريم) الواسعة، ويرجّون بوابات القصور وأسوارها وهم يتلذذون برؤية ظلالهم تراقب من خلف النوافذ في خوف.. وفي أحد الوفود، ربما الخامس عشر، هبطت فتاةٌ ملثمة على أرض (سوبريم).. بمجرد هبوطهم انطلقوا في الشوارع على غير تحديد، بينما هي سارت بخطواتٍ تعرف طريقها، حتى وصلت إلى فيلا كبيرة.. يتجمع حولها الكثير من الغوغاء.. فدارت حولها دون أن يشعر بها أحد.. حتى وصلت إلى أقصر بقعة في سور الفيلا..

أخرجت من جيبها حبل غسيل مزود بمشبكٍ حديدي.. ألقته على تلك البقعة وشدت الحبل تستعين به على التسلق.. نزلت إلى الجانب الآخر في حديقة الفيلا.. كانت تعرف جيدًا من قصص أمها أن هناك بابًا خلفيًّا للفيلا يفتح على جزء من الحديقة غير ظاهرٍ للعيان.. زحفت على الأرض ببطء.. لمحت الكلب في الجانب الآخر من الحديقة ينبح بقوة، لعله يخيف الواقفين أمام السور، لكنه مربوطٌ بعيدًا عن السور، ربطه صاحبه حماية له من أيديهم..

زحفت حتى رأت الجزء الخفي، حيث جزء من الفيلا مفتوح فيه أريكة وأرجوحة وكرسيان يسمح لأصحاب الفيلا باستنشاق هواءٍ نقي دون أن يكشفهم جار.. رأت (جميل) وزوجته وطفلين.. الطفلان يبكيان.. وجميل وزوجته يتشاجران..

مدت الفتاة يدها في ثيابها لتخرج سكينًا حادًّا .. تأملت لمعانه تحت ضوء القمر.. وظلت مختبئةً حتى أدخلت المرأة طفليها للداخل وتركت (جميل) وحده.. اقتربت شيئًا فشيئًا وهي ما تزال زاحفة.. ثم دخل (جميل) فاقتربت أكثر حتى صارت مجاورةً للأرجوحة تمامًا، لكنها غير مرئية في الظلام.. وبعد ساعة خرجت زوجة (جميل) وحدها، فباغتتها الفتاة بالسكين وهي تصرخ حتى طعنتها اثنتين وعشرين طعنة، قبل أن يأتي زوجها على صوت الصراخ فيفجع بما يرى.. فسقط السكين من يدها، وفرَّت بأسرع ما استطاعت وهي تضحك بهستيرية!..

❊❊❊

نقطة الصفر

تدخل الجيش أخيرًا لفض الهرج والمرج الذي حدث.. أخرجوا كل الغوغاء، ثم كل السكان من حي أول.. كانت المنازل مدمرةً.. التفجيرات زلزلت الحي.. كل ما بقي ركامٌ وأطلال وحلمٌ لم يدُم.. لجأ أهل (سوبريم) إلى ذويهم أو منازلهم الأخرى البعيدة عن طنطا ومشكلاتها، وبعضهم نزل بفندقٍ هنا أو هناك..

صار حي أول مهجورًا تمامًا.. ينظر إليه أهل طنطا من تحته فلا يرون إلا الخراب.. المسابح صارت حمراء وسوداء.. اللوحة البصرية لملاعب الجولف لم يبق فيها لونٌ أخضر..

اعتُبِر (حكيم) بطلًا شعبيًا مع تكريم ذكراه، وغض النظر عما دار حوله من شكوك.

مرت ثلاثة أيام بلياليهنَّ، ثم استيقظ الناس فجرًا على هزةٍ عنيفة مع صوت الأذان «الله أكبر الله أكبر».. قاموا فزعين ليجدوا حي أول قد هبط إلى مكانه، واستدار كما كان أول مرة!!.. ساروا إليه بترقب كأنهم يستكشفون الحي القديم الذي كان فيه أحباؤهم قبل التهجير.. تغيرت الطرق والشوارع والملامح لكن الأرض لم تتغير..

وجد أحدهم جثة (وحيد) متعفنةً.. عرفوا أنه مات منذ أيام

مطعونًا عدة طعنات.. قيل إن تاجر مخدرات قد طعنه لما لم يوفه حسابه.. حزن أصحابه ودفنوه بحسرة وهم يقولون:

«لو عاش ليرى بعينه ما حدث لـحي أول!.. ترى هل عرف ما جرى لـ(حكيم)؟!»

في عصر ذلك اليوم وبينما رجع الأطفال يلعبون في المنطقة التي كانت تسمى قريبًا مدار الشمس، وجد أحدهم مكان سقوط (فرح) قلبًا طازجًا يكاد ينبض بين يديه.. ولكن بلا جسد!.

❋❋❋

في مكانٍ ما، جلست (نادية) تكتب في مفكرتها رسالةً جديدة إلى ابنها الراحل، كتبت وهي تقرأ على قطتها بصوتٍ عال:

« أحيانًا أشعر أني تجاوزت فقدانك، ونضجت بما يكفي لأحول لحظاتنا الجميلة إلى ماضٍ يُذكر فيُبتسم لأجله، وأحيانًا أشعر أني أنكر تمامًا أن اللحظة التي كنت تغمرني فيها بحنانك وتضحك إليّ ضحكة المحب الصادق مرت..

كأني أفقت فجأة من حلمٍ ألهاني لأجد نفسي في العراء بدونك.. اختفيت فجأة، وانقبض قلبي مرةً أخرى كما انقبض أول مرة معلنًا عن فراغ لا يملؤه أحد..

سلام عليك أينما كنت.»

قالت القطة في صوت موائيّ:

«هذا محزن جدًا، إنني أفتـ... مياو مياو!».

انتفضت القطة وحاولت أن تتكلم فلم يصدر عنها إلا المواء، فتموضعت مكانها في سكينة، كأن شيطان الكلام قد فارقها أخيرًا، لم تفهم (نادية) ما حدث بالضبط إلا بعد مشاهدة الأخبار.

***

في سجنٍ شديد الحراسة، حيث يساق الرجل المعروف إعلاميًا باسم (سوبر سامح) مستسلمًا، ليقوم بأشغالٍ شاقة -لغيره، لكنها عليه يسيرة - لقوته الفائقة التي اكتسبها بعد حادث النيزك، يكسر الأحجار بيده بكل سهولة، وينقل الأطنان منها من هنا لهناك، شاعرًا بالندم على تلك القوة الخارقة التي أصابته بدون رغبة منه، فحولته إلى قاتل، وبينما هو كذلك رافعًا يده ليضرب حجرًا ليكسره، ارتطمت يده بالحجر فصرخ من الألم، ونظر في دهشة إلى الحجر الذي لم يتأثر.. أتاه الحارس متوجسًا، لكن (سامح) تجاهل الألم ومد يده إلى الحجر الضخم الذي يستطيع رفعه بسهولة، فحاول أن يرفعه بكلتا يديه فلم يقدر.. نظر حوله إلى الحراس الذين لم يفهموا ما يحدث ثم أخذ يصيح «لقد عُدت.. لقد عدت!».

***

كانت (يمنى) قد أحبت يدها، وكونت معها صداقةً حقيقية، أفادتها في عملها وحياتها، كأنها أختها التوأم التي لم تُرزق بها، وفي يومٍ قامت مبتسمة بعد حلم سعيد، فقالت مخاطبة يدها:

«يا له من حلمٍ.. ليته يتحقق! أتعلمين بم حلمت؟!»

فلم تتلق جوابًا.. ناعسةً قربت يدها من وجهها لتجد الوجه قد اختفى تمامًا، زعقت بها فلم ترد، فأصابها الهلع.. ارتدت ملابسها ونزلت إلى الشارع لتجد جميع سكان الشارع قد نزلوا ليتأكد كل منهم أن العطل ليس عنده وحده.. لكنهم للأسف قد فقدوا الأيدي المتكلمة للأبد!.

***

أقسم الشاب لأصحابه أن فتاةً حسناء قوية البنية كانت جالسة في حزن، على جانب الطريق، وحين اقترب منها وسمع صوت هزة حي أول، رأى جسد الفتاة ينكمش كبالونة شكها دبوس، وحين اقترب أكثر ذاب ما كان يظنه الجسد وتبخر تمامًا.. لم يصورها بهاتفه المحمول، فلم يصدقه أحد، ولم يكن يدري أن تلك الفتاة هي (مبسوط)، الجني المحبوس في جسد (كرستينا)، وقد تحرر أخيرًا من ذلك الجسد بانتهاء مفعول النيزك، لكنه ما إن رجع إلى هيئته كجني حتى حبسه أصدقاؤه بتعويذة جديدة في بيتٍ معزول على سبيل المزاح!.

***

بعد شجارٍ يومي معتاد مع زوجته، أخذ (عمرو عايد) قرص الدواء السحري ونام في سعادة، منتظرًا التحول المعتاد إلى حياة (أحمد الوزير) الرغدة، كان نومه عميقًا تلك الليلة، ولكن بلا

أحلام.. سباحة في فراغٍ دامس، ثم استيقظ على صوت زوجته، ليجد نفسه في بيته كما هو.. فزع.. أمسك علبة الدواء ليتأكد أنه لم يختلط عليه الأمر بدواءٍ آخر، لكنه تأكد من أنه الدواء الصحيح.. أخذ قرصين هذه المرة، وحاول أن يعود إلى النوم، ولكن بلا فائدة!.

***

كان الكاتب (أحمد إسماعيل) يجلس أمام حاسوبه في مساحة عملٍ مشتركة بالقاهرة، يحب أن يعمل بها حيث يتوفر الهدوء والجو المساعد على التركيز والإنجاز، يكتب روايته التي يعمل عليها منذ سنوات، ويراجع رسائل (عمرو هاني) التي أرسلها له من الماضي، كان يتعجب، لو أنه حكى في رواية أن شخصًا عاد إلى الماضي وأرسل إليه هذه الرسائل لما صدَّقه أحد، لكن الواقع أغرب من الخيال، لذلك اكتفى بنفسه حافظًا لسره الذي لن يصدقه أحد، رغم أن ذلك يضعه على حافة الجنون، وبينما يقرأ إحدى تلك الرسائل فجأة عاد متصفح الإنترنت إلى صفحة البريد العام، وكأن هناك خطأ ما، أخذ يبحث عن الرسالة التي كان يقرؤها فلم يجدها، دُهش.. أخذ يبحث عن باقي الرسائل.. لقد اختفت جميعًا.. نظر إلى كوب القهوة بجانبه في شك، هل وضع له النادل مادةً مهلوسة؟ أم تُرى كان مجنونًا من البداية؟!.

***